أبو حيان التوحيدي

عصره:

القرن الذي أولد التوحيدي، وشبَّ فيه واكتهل وشاب، هو العصر العباسي الثالث، فسدت فيه عصبية بني العباس، فلم تبق لهم كلمة مسموعة، ولا رأي جميع[1]، ولا قوة نافذة، ولا كيان يُرتجى معه البقاء. تغلغلت الأعاجم في جسم الدولة، وتسلطت على الأمور، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الأمور تلتوي، ودولة الخلافة تضؤل وتتراجع، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها، وعاث سوس الفساد في ذاك الجسم العظيم، وتناثر عقد الدولة العباسية، وانتقصت من أطرافها، والأهواء مشتتة، والنفوس شعاع[2].

لم يكد ينسلخ[3] الربع الأول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط، واستأثر البريدي بالأهواز وأعمالها، وذهب أبناء بُويْه الديلم بفارس والرَّيّ وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل، وغدت خراسان وما وراء النهر بيد السامانية، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في أيدي بني حمدان، وانتقلت مصر والشام إلى الإخشيدية، والبحرين واليمامة إلى القرمطي، والمغرب وإفريقية إلى القائم العلوي، والأندلس للناصر عبد الرحمن الأموي.

---

(١) الجميع: ضد المتفرق.

(٢) الشاع، كسحاب: التفريق، والرأي المتفرق.

(٣) سلخ (كنصر ومنع) الشهر: مضى كانسلخ، وفلان شهره أمضاه وصار في آخره.

لم يبق للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق، وليس للخليفة وزير، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته القليلة. وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة، وهكذا كانت مملكة بني العباس نهبَ أيدي الأتراك والديلم -والأتراك جيل من التتر معروف، والديلم سكان الجبال في فارس- وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم، وحاولوا نزع تراث العباسيين من أيديهم.

وكثر قتل الخلفاء وخلعهم، فقتل المقتدر، وبويع للقاهر ثم خلع، وخلفه الراضي، واستخلف المتقي، ثم بويع للمستكفي وهو كأكثر من سلفه مغلوب على أمره. وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الإخشيديين، ودولة الفاطميين تستولي على مصر، ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي، وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك. وأصبح خليفة بني العباس أشبه بصاحب منصب ديني له القول ولغيره العمل، يملك الاسم، والجسم يستغله المستغلون من المتغلبين والمتوثبين، والبلاد تخرب والنفوس تهلك، حتى لقد خربت بغداد عند استيلاء البويهيين عليها وأخذوا بتجديدها ورمّها، وكانت في المائتين الثانية والثالثة أعمر مدينة في الأرض، وكان القرامطة[1] خلال تلك الأيام يعيثون في العراق ثم تعدوا إلى الشام، بعد أن عبثوا بمقدسات الأمة في الحجاز، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارخ والنزاع إلى الفتنة. أما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراوحونها، ودولة بني حمدان كَفَت عاديتهم، وغزاهم

(١) القرامطة: نسبة لمحمد بن قرمط، لقب بذلك لقرمطته؛ أي تقريبه في خطه أو خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية.

منصور بن نوح الساماني عام النفير[1] في ألوف من أهل خراسان وما وراء النهر. وفي خلال هذا القرن انقرضت دول، ولا سيما السامانية والإخشيدية، وقام محمود بن سبكتكين رجل ذاك العصر فاستولى على خراسان، وامتدت فتوحه حتى أخضع لسلطانه جزءًا مهمًّا من الهند والشرق.

وفي هذه المملكة، بل الممالك التي كانت تتخبط في أقدارها، وتختلط أمورها بأيدي أخيارها وأشرارها، نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل المائة الثالثة. وقد تضعف السياسة في أمة وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها، وعلومها آخذة بالنظام الذي كان لها، كما قيل: «يفنى القميص وفيه ريح المندل[2]». ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك، ممن أرادوا أن يكون في جملتهم الأجلاءُ والقضاة، يستأثرون بهم دون جيرانهم، ويزينون بهم ملكهم، أو يستخدمونهم ليعينوهم على قيام أمرهم، أو يختارون طبقة من الأدباء والشعراء، ينادمونهم ويمدحونهم، ويخلدون مآثرهم ويعظمون مفاخرهم، فيعتزون بهم عند القريب والغريب، والبغيض والحبيب. فكانت في هذا الشأن تجاري بغداد كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمذان والري وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة.

وتنوعت المذاهب التي غلبت على الأمصار، فكان أهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة، وبغداد تؤوى جميع النحل وفيها غالية يحبون معاوية، ومشبهة وهم أصناف كثيرة، ويهود بإقليم الجبال أكثر من نصاراها، ومجوسها كثير والمجوس أصحاب زرداشت، المعظمون للنار وسائر الأنوار. ولكل بلد من بلاد العجم طرز

(١) النفير والنفر: القوم ينفرون معك ويتنافرون في القتال، وتنافروا: ذهبوا.

(٢) المندل: العود أو أجوده كالمندلي، ومندل بلد في الهند، ولعل هذا العود نُسب إليها.

يخالف الطرز الآخر، فمنهما ما تجد فيه الغلبة للحنفيين، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة، ومنها ما كانت شيعته غالية، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث، وأكثر إقليم خوزستان معتزلة، وفي الأقاليم الأخرى شيعة وحنابلة وشوافع. والفتن كثيرًا ما تقع بين الحنابلة والشافعية في بغداد، أو بين السنة والشيعة في مدينة السلام وبعض أصقاع فارس والجبال وما إليها فيُفني بعضهم بعضًا.

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية[1] خشية العامة وجهلة السلاطين، واعتزل الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة في مجالس على حيالهم، وكان التوحيدي أحد أساطين تلك الحلبات والحركة الدائمة في الإفادة والاستفادة طفحت أيامه بالغرائب، فكان عجبًا في نفسه ودرسه.

نشأته وأعماله:

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الخاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيد، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله:

يترشفن من فمي رشفات هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل: إن التوحيدي نسبة للمعتزلة؛ لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، وهو الأرجح. ذكروا في أصله أنه شيرازي، وقيل: نيسابوري، وقيل:

---

(١) التقية: مشتقة من اتقاه؛ أي خافه، وهي ضد العلانية، وكان المسلمون لأول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيداروته إذا كان قويًا، من غير أن يستحلوا دمًا حرامًا أو مالًا حرامًا أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهروا الكفار على عورات المسلمين. واختلفت الفرق الإسلامية في التقية ومنها التي تجوزت فيها كثيرًا، وبعضهم حدد لها شروطًا، ولا سيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباطنة. ويقضي الشرع والعقل أن يستعمل في دار التقية ما لا يستعمل في دار العلانية.

واسطي، وهو عربي، وما كان يعرف الفارسية، ولو نشأ في فارس لكان يتكلم بها، وكنيته أبو حيان، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في أوائل العقد الثالث، ونشأ في بغداد وعُمّر لأنه مات على رأس الخمسمائة أو بعدها بقليل، وقيل: مات بشيراز سنة (٤١٤).

نزل التوحيدي بغداد صغيرًا على ما يظهر، وتخرج في النحو بأبي سعيد السيرافي وبعلي بن عيسى الرماني، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوروزي وأبي بكر الشافعي، وحضر في أوقات مختلفة بين سنتي (٣٦١-٣٩١هـ) دروس يحيى بن عدي وأبي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل أبي الحسن العامري، وأبي النفيس الرياضي الفيلسوف، فجاء مفننًا في العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين في عصره عُدَّ حكيمًا عظيمًا، وصفا ذهنه، وزاد تسامحه، وأصبح يُحكّم عقله فيما يرى ويسمع، لا يأخذ الأشياء على ظواهرها، ويواصل الدرس والنظر، غير متحيز لفئة، ولا متعصب لرأي جماعة.

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظيًا، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق أهل الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن، حُفَظَةٌ واسع الرواية والدراية. قال: ولم أرَ واحدًا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا أدمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجاب. وقال فيه: إنه صوفي السمت والهيئة، وإنه كان فقيرًا صابرًا، وعدَّه السبكي في فقهاء الشافعية، وقال: إنه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه، وآخر ما أخذ عنه بشيراز سنة أربعمائة. وقال النووي في

تهذيب الأسماء: إنه من أصحابه المصنفين، وأن من غرائبه أنه قال في بعض رسائله: لا ربا في الزعفران، ووافقه على قوله القاضي أبو حامد المروروزي.

ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصداقة والصديق، وكتاب المقابسات أو المقابسة، وكتاب الإشارات الإلهية، والرد على ابن حنّي في شعر المتنبي، وكتاب الإمتاع والمؤانسة، وكتاب الزلفة، وكتاب رياض العارفين، وكتاب تقريظ الجاحظ، وكتاب مثالب الوزيرين[1]، وكتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي، ورسالة في صلات الفقهاء في المناظرة: الرسالة البغدادية، الرسالة في أخبار الصوفية، الرسالة الصوفية أيضًا، الرسالة في الحنين إلى الأوطان، كتاب المحاضرات والمناظرات، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل جلد له فاتحة وخاتمة. وقد ساق الصفدي في الوافي بالوفيات ثبتًا طويلًا في مصنفاته، ومنها كثير في كتب فتوح البلدان يستدل بها على تضلعه من هذا الفن أيضًا. وأثبت في أكثر من أربع صفحات كلها أسماء كتبه.

وكتبُ أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات، وتقريع وتقريظ، ونقد ولمز، ووعظ وإرشاد، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلم والفهم، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين، صوَّر فيها العلم

(١) اطلع ياقوت الحموي على بعض كتب التوحيد أوائل المائة السابعة، ونقل منها كثيرًا في كتابه معجم الأدباء، ومنها ما كان بخط المؤلف مثل كتاب «تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ»، و«مثالب الوزيرين»، و«الإمتاع والمؤانسة» و«كتاب المحاضرات أو محاضرات العلماء»، وفي إحدى مكاتب الأستانة نسخة من مثالب الوزيرين وأخرى تامة من الإمتاع، وفي دار الكتب بدمشق الجزء الأول من الإشارات الإلهية، وله مختصر محفوظ في دار كتب الأمة ببرلين، وفي دار الكتب الإمبروزيانية في ميلانو الجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة، ونسخة من كتاب البصائر له، وفي مكتبة الفاتح في الأستانة خمس نخس مخطوطة من البصائر والذخائر، وفي دار الكتب في لينينغزاد نسخة من الحجيج للتوحيدي. وليس لأبي حيان من المطبوع سوى رسالة الصداقة والصديق وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم وكتاب الإمتاع والمؤانسة.

والأدب في أيامه أحسن صورة. وتنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون حسدًا ولؤمًا، وما مثله بالذي يكون نكرة؛ ذلك لأنه قال الحق ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرِّي.

كان التوحيدي -على ما يظهر من كلامه- من أهل الباطن؛ أي الصوفية، ومن أهل الظاهر؛ أي الدينيين الحكماء، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبي والتستري والجنيد والسَّري السَّقطي وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك أو الصوفية، وبين مذهب السجستاني والزَّنجاني والمهرجاني والصَيْمَري والمقدسي والمجتبي وابن زرعة وابن سوار وابن رفاعة في الحكمة. وقد شهدت له كتبه بأنه متصوف، وشهدت له بأنه فيلسوف، وأنه جمع بين العلوم المادية والعلوم المعادية، ووفَّى كل علم قسطه من النظر، وليست له طريقة خاصة في التصوف، ولا مذهب معروف في الفلسفة، بل إنه أحاط بجميع الطرق، وحَنى عليها، وطابت نفسه بعشرة أهل ثقتها والأخذ عنهم. وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من المباحثات والمناقشات المدونة بعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الديني أو الفلسفي، وبدا كل ذلك في مظهر غريب بأسلوب إنشائه، وما غفلة المؤرخين أو تغافلهم عن الترجمة له، مع هذه البسطة في العلم الواسع، والبيان الرائع، إلا بسبب أخلاقه على ما يظهر، فغمطوه بذلك حقه، لكن الفضل لا يستر بحجاب، والعقل لا يخفى على ذوي الألباب.

وظهر أن أبا حيان كان مقترًا عليه في الرزق، وأنه كان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة. قال عن نفسه: «أنا رجل حب السلامة غالب عليَّ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندي»، ولم يلِ التوحيد أمرًا من أمور الدولة، ويستحيل

على من كان في مثل علمه واستغراقه في دفاتره أن يتقلد الأعمال، فإذا لم تكن له إدرارات من السلطان أو الخليفة يعيش بها يبرّح به العوز والإملاق.

لما ترامى إلى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بُوَيْه في الشرق، وكانا يُفضلان على أعلام العلم في مدينة السلام ويبرانهم بهباتهما الحين بعد الآخر، ووصلت عطاياهما إلى شيخي التوحيدي أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي -سمت نفس أبي حيان إلى أن يقصد ذينك الوزيرين وانقطع إليهما، وقدم بين يدي نجواه مدحهما، إلا أنه لم ينل منهما رغيته وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دار الصاحب لم ينقده درهمًا، ولا أعطاه راحلة ولا زادًا. أخفق في قصر الصاحبين مع أنهما كانا مع الوزير المهلبي من أكبر حماة الأدب، كما كان سيف الدولة بن حمدان في حلب، وربما كان التوحيدي استطال عليهما، وفيهما عزة السلطان وأبهة الفرس، فازدرياه فشق عليه الأمر، وهجاهما في كتاب أسماه «مثالب الوزيرين»، أورد فيه حكايات في ثلبهما؛ ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم، قال: إنه فارق باب الصاحب سنة (٣٧٠) وقد نال منه هذا الحرمان الذي قصده به وأحفظه عليه، وجعله من جميع غاشيته فردًا. ومن جملة ما نفّره من الصاحب أن هذا قدم إليه رسالة في ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له فقال: نسخ مثله يأتي على العمر والبصر، والوراقة كانت موجودة ببغداد! فأخذ الصاحب في نفسه عليه.

وقد عرفنا شيئًا من أخلاق التوحيدي في هذا الكتاب، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين، وأحبابهما كُثَّار في الأمصار، فأعرض الناس عنه ووقعوا فيه، وأسقطوه من دواوينهم. وعجيب أن يغضب الناس لهضم حق المهجوّين، وقلما يغتاظون لحق الهاجين، وأن لا يحفلوا بالسبب الذي يلجئ هؤلاء إلى الهجاء أحيانًا. وقيل: إن الصاحب بن عباد اتهم التوحيدي بالزندقة ففر منه، وطلبه الوزير

المهلبي ليقتله ففر إلى ديار بكر، وفي رواية: أنه مات في الاستتار؛ ولكن التوحيدي إذا فاتته أفضال الوزيرين الصاحبين، فقد لقي إكرامًا من الوزير ابن سعدان وعبد الله بن العارض الشيرازي، ولابن سعدان ألَّف كتاب الصديق والصداقة، ولابن العارض كتاب الإمتاع والمؤانسة، وللدُّلَجي بشيراز ألَّف كتاب المحاضرات. ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيدي عن إهداء كتبه كلها إلى بعض عظماء عصره، وكانت طريقة إهداء المؤلفين مصنفاتهم لأمير أو عظيم من الشائع المعروف، وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف بأسماء عظماء عصرهم، والارتزاق بعطاياهم وهداياهم.

قضت الفاقة على التوحيدي أن يتكفف بعض الأمراء، وكتابه إلى ابن العميد نموذج من هذا التنزل، ولكن العجز غالب لأنه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه. وقال: إنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين: رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة، وإن سكت سكت عن ضِغن وإحنة[1]، ورجل إن بذل كدَّر بامتنانه بذله، وإن منع حسن بإقباله بخله. ولقد دعا، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم، وبان له نبوُّ الدهر به، وضياع سعيه، وخيبة أمله، في كل ما ارتجاه لملمٍّ أو مهمٍّ، أو حادثة أو نائبة، دعا بما دعا به بعض النساك فقال: «اللهم صُنْ وجوهنا باليسار، ولا تذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء».

وإذا أنصفنا أبا حيان فلمناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتهما وجسم سيئاتهما، مما ساقه إليه خيبة في أمله، أو مساس في عاطفته، أو اعتداد برأيه،

(١) الدمنة: الحقد القديم. والإحنة: الحقد والغضب. والضغن: الحقد.

فلا نذهب مع القائلين بالحكم عليه بالزندقة، اللهم إذا وقفنا في الحكم عليه عند حدود أقواله، وفيها شاهد على توحيده، وبعده عن الإلحاد الذي قُرف به. على أن معظم من ذكروه، ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الأدباء، قالوا: إنه كان يتأله؛ أي: يتنسك ويتعبد، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته. ودعوى ابن الجوزي أن زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو حيان وأبو العلاء المعري، وأنه كان أشدهما، صرَّح وهو جمجم، من الكلام الذي يلقى على عواهنه، أخذه على ما يظهر بدون روية، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص، وكذلك ما قيل من أن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يخفيه من ذلك، فطلبه ليقتله ففرَّ، كلام فيه نظر أيضًا[1]، على أن كثيرين من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراوندي والتوحيدي والمعري، فلم يُتهموا بشيءٍ ولا قدح الناس في دينهم، وذهبوا من هذا العالم بسلام، لم يمسهم أحد بسوءٍ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم. ولطالما وجهت تهمة الزندقة إلى كثير ممن توسعوا في علم الكلام أو العلم الإلهي، أو علوم الأوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي، وكان نمط تفكيرهم جديدًا يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطنعه رجل مات أو رجال ماتوا، فوَقَروا في الصدور، وعلت منزلتهم بين الناس. والميت أفضل عندهم من الحي، وقد يكون بينهما بون بعيد وفروق ظاهرة.

والأرجح أنه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي، والطاعنون إما حسدة ساقهم لؤم الغريزة إلى النيل من عظيم بَذَّهم وأربى عليهم،

(١) في معلمة الإسلام ترجمة للتوحيدي بقلم الأساذ مرحليوث، جاء فيها أن الوزير المهلبي نفى أبا حيان لما صرح به من الإلحاد في كتبه التي ضاعت، وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال: إنه ليس من الثابت أن هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيدي التي ذكرها ياقوت.

فما استطاعوا مشاركته ومنافسته، أو أنهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه، وباب التأويل متسع لمن يحاول أن يسقط مؤلفًا مثله، خاض أصعب المسائل الإلهية والاجتماعية.

قال فيه بعض واصفيه: إنه قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذمُّ شأنه، والثلب دكانه، يشتكي صرف زمانه، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه. وقد لامه أستاذه السيرافي يومًا وهو ينقل ذم أعرابي بقوله: «تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس»، فأجاب: «أدام الله الأستاذ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه». وهذا الخُلق في النَّيْل من الناس لا سبيل إلى تبرئة أبي حيان منه، لأنه مما أجمعت الآراء على أنه كان فيه متأصلًا باديًا، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بني آدم. ويوشك صاحب هذا المشرب أن يعادي أكثر أهل زمانه، هذا وهم دونه في صوب العقل وذوب الفضل.

مثال من إفحاشه في وصف الرجال: سأله ابن العارض الوزير في إحدى مجالسه عن أبي الفتح بن فارس وكان أقام عنده بقَرْمسين أيامًا وعما وضح له من تقدمه وتأخره في صناعته وبضاعته، فكان من الجواب: أنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلا أن الرجحان لما يُذَمُّ به لا لما يحمد عليه. فمن ذلك أن له خبرة بالتصرف، وهناك أيضًا قسط من العلم بأوائل الهندسة، وتشبه بأصحاب البلاغة، ومذاكرة في المحافل صالحة، إلا أن هذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة، وقد كان قرينه بقرميسين يظن به خيرًا ويلحظه بعين ما، فلما سبره ذمه وكره أن يعاجله بالصرف لئلا يحكم على اختياره بالخطأ وعلى تصرفه بالهوى. وللكبراء ذوي القدرة زلات فاحشة، وفعلات موحشة، ولكن ليس لهم عليها مُعيّر للخوف منهم.

إن الرجل الذي يخوض غمار المباحث الدقيقة، ويخرج منها ناصع الجبين والحجة، ناجح المسعى والمرمى، وهو من أفراد الدنيا بذكائه ونبوغه، يستحيل أن يتقيد بقيود أفكار غيره: يصدر إذا صدروا، ويرد إذا وردوا، يقلدهم في كل ما قرروا أو قُرِّر لهم، ويتابعهم عموا وضلوا، أم أبصروا واهتدوا. وفي البشر عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب أبي حيان، قضوا أيامهم في ضيق من معاشهم، وضيق من عقول أهل جيلهم، وضيق من عبث المناظرين والمتعالمين، وسيطرة المستبدين والجائرين.

تشاؤمه وتفننه:

تُرى هل كان التوحيدي يسمع الموسيقى والغناء، ويجلس إلى أرباب الدعابة والهزل، ويخلع ثوب الجد والوقار، ساعة من ليل أو نهار؟ وبغداد في أيامه علقت الطرب، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات إلى أسمى الرتب، وخرج الأدب فيها عن خشونته، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب، وفؤاد مضطرب، ووصف واقعة حال. وأكبر الظن أن التوحيدي لم يكن على شيء من هذا، اللهم إلا إذا كان في صباه، وقد عرف بنسكه وزهده، أجمع على ذلك العارفون به. ومن شعره:

إن كنت تطلب مجدًا ... إذا ذُكرت وفضلا
فكن لعبدك خلًّا ... وكن لخلك مولى

وكتب إلى صديق:

لا تجعلن بُعد داري ... مخسسًا لنصيبي
فربَّ شخص بعيد ... إلى الفؤاد قريب
وربَّ شخص قريب ... إليك غير حبيب

مـــا البعـــد والقـــرب إلا مـــا كـــان بـــين القلـــوب

وشعره قليل، وقد قال عن نفسه: لست من الشعر والشعراء في شيء.

ولقد أحرق أبو حيان كتبه في آخر عمره لقلة جدواها بزعمه، وضنًا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته. وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك. ومما قال في الاعتذار: «إن كان -أيدك الله- قد أنقب خفك[1] ما سمعت، فقد أدمى أظَلِّي ما فعلت، فليهن عليك ذلك، فما انبريت له، ولا اجترأت عليه، حتى استخرت الله عز وجل فيه أيامًا ولياليَ، وحتى أوحى إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما وقع في الروع، وتربع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو العذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي. إن العلم -حاطك الله- يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصرًا على العلم، كان العلم كلًّا على العالِم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلًّا، وأورث ذلًّا، وصار في رقبة صاحبه غُلًّا.

ثم اعلم -علمك الله الخير- أن هذه الكتبْ حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سرًّا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبًا، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبًا، على أني جمعت أكثرها للناس، ولطلب المَثالة[2] منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمدِّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله ولا شك في

---

(١) أصل المثل: إن يَدْمَ أظلك فقد نقب خفي. الأظل: ما تحت منسم البعير، والخف: واحد الأخفاف وهي قوائمه. يضربه المشكو إليه للشاكي؛ أي أنا منه في مثل ما تشكوه (أمثال الميداني) والمنسم كمجلس: طرف خف البعير، وهما كالظفرين في مقدمته.

(٢) الفضل؛ يقال: هو من ذوي مثالتهم.

حسن ما اختاره الله لي، وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره، أن تكون حجة عليَّ لا لي.

ومما شحذ العزم على ذلك، ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدًا نجيبًا، وصديقًا حبيبًا، وصاحبًا قريبًا، وتابعًا أديبًا، ورئيسًا منيبًا، فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلتَ: ولِمَ تسمهم بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ؛ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر[1] في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخافٍ عليك، مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صوب ما فعلته وأتيته، بما قدمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته؛ إما هربًا من التطويل وإما خوفًا من القال والقيل.

وبعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أو غد، فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة، أو رجاءٌ لحال جديدة، ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

---

(١) الخضر ككتف: البقلة الخضراء كالحضرة كفرحة، وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدُّخن، وكذلك ثمرتها، وترتفع ذراعًا، وهي تملأ فم البعير (التاج).

(٢) يقال: هو هامة اليوم أو غد؛ أي مشف على الموت.

نـــروح ونغـــدو كـــلَّ يـــوم وليلـــة وعـــما قليـــل لا نـــروح ولا نغـــدو

وكما قال الآخر:

تفوقـــت درّاتِ الـــصبا في ظلالـــه إلى أن أتـــاني بالفطـــام مـــشيب

والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقرُّ بهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما والى هذه المواضع، وتواتر إليَّ نعيهم، واشتدت الواعية[1] بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم، وهل لي محيد عن مصيرهم، أسأل الله تعالى رب العالمين، أن يجعل اعترافي بما أعرفه، موصولًا بنزوعي عما أقترفته، إنه قريب مجيب».

قال: «وبعد؛ فلي في إحراق هذه الكتب أُسوة بأئمة يُقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويُعْشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، ويوسف بن أسباط، وأبو سليمان الداراني»، ثم أردف بقوله:

«وماذا أقول، وسامعي يصدق، إن زمانًا أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزنًا وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظًا وجوًى، وضنى وشجى، وما يصنع بما كان، وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجت إليه للناس، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس، وذلك من فضل الله علينا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلِمَ تُعَنِّي[2] عيني -أيدك الله- بعد هذا بالحبر والورق

(١) الصراخ.

(٢) تعني: تتعب، وأعناه وعناه.

والجلد، والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العُلا إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب، في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرج[١]، وهو بصاحبه إلى الهبوط، وهل وصل الحكماء والقدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي، وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم، فأين يُذهب بنا؟ وعلى أي باب نحطر حالنا؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحيص الجشع عليها؟ وهل المغرم بها إلا كمكاثرها؟ هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مقضّ، والمقام ممض[٢]، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاغترار غالب».

وختم كتابه بقوله: «على أني لو علمت في أي حال غلب عليَّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن الله -جل وعز- في خلقه أحكامًا، لا يغارُّ عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها، ولا ينال غيبها[٣]، ولا يعرف قَلْبها[٤]، ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر».

كتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة، وقد ألمَّ فيه بما حداه على تعفية أثره، لما لقي من الإنكار، وناله من أهل جيله، فهُجِّن[٥] بما هُجِّن، وأُزعج بما أُزعج،

---

(١) الزبرج بالكسر: الزينة بالوشي أو الجوهر.

(٢) مضه الشيء مضًا ومضيضًا: بلغ من قلبه الحزن كأمضه. وأقض عليه المضجع: خشن.

(٣) ظلمتها.

(٤) محض كل شيء.

(٥) التهجين: التقبيح.

ولولا أن السويداء غلبت عليه، واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه، وزين له إتيان ما أتى -وبنات الأفكار أغلى من كل عقار ونضار- لما أقيمت له معذرة، ولا أُسبل على ذنبه ستر المغفرة، وبالسويداء قد يهلك المرءُ أعز حبيب على قلبه، حتى إذا ثاب إليه عقله ندم على فعلته، وبالمِرّة الصفراء قد يقتل نفسه، والنفس أعز الأعلاق على الإطلاق. والتوحيدي مع هذا لم يأت بدعًا فريًّا[1]، ولعمله أشباه ونظائر، بيد أن الزمن الذي قلبه كل مقلب، وغيره في أعطاف النعم يتقلب، وأخرجه من جلده، ونبا به عن طوره، بما رآه من خُبث وخَبث، وعَنَت وعَبَث، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ليستمتع بذَرْوٍ[2] من درره أهل الأجيال المقبلة، على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة، فقضى له من قبل المأتم الذي عقده لإحراق كتبه، أن يتناقل الوراقون والطالبون أسفاره ويتنافسوا في نسخها واقتنائها، فبقيت بصنيعهم هذه البقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكراه على كرور الأعصار، وطارت كل مطار في الأقطار والأمصار.

وإن أعظم ما ينتقد عليه في هذه الرسالة قوله: إنه جمع أكثر كتبه للناس، ولطلب الفضل منهم، وعقد الرياسة بينهم، ونشدان الجاه عندهم. وقوله هذا ينافي هدي العلماء، فإن العلم يُراد لذاته، وتأليف الكتب يُقصد به النفع، ونشر فكر وبث حقيقة، وقد يتوقع منها مأرب آخر هذا إذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها، فإن هذا التصريح مما يعاب عليه، وما نرى هذه الأفكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف. على أننا رأينا أبا حيان في بعض أحواله ومواقفه يقول غير هذا، رأيناه يقول وقد رأى في جامع الرصافة المعافى بن زكريا ينام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضرر أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه: مهلًا أيها

(١) الفري كغني: الأمر المختلق المصنوع أو العظيم.

(٢) يسير.

الشيخ وصبرًا، فإنك بعين الله ومرأى منه ومسمع، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعز المال.

نموذجات من كتبه:

نقلت كتب أبي حيان أفكارًا منوعة، وفلسفة أُناس كادَت تنسى أخبارهم، لو لم يتصد لتدوينها؛ وفي اقتباسها أو اقتباس صفحات منها تتجلى ألوان أدبه وسهولة بيانه. وفيها صورة غريبة من صور عصره، وصور أعجب من صور نفسه، قال في كتاب المحاضرات:

ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام، فإن شيئًا يجري في ذلك المجلس النبيه، وبين هذين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام، ينبغي أن يغتنم سماعه، وتوعى فوائده، ولا يتهاون بشيء منه. وكان في جملة من حضر ذاك المجلس الذي انعقد سنة عشرين[1] وثلاثمائة: الخالدي وابن الأخشيد والكندي وابن أبي بشر وابن رباح وابن كعب وقدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى بن الجراح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي ورسول ابن صُغج من مصر والمرزباني صاحب بني سامان. قال التوحيدي: فقال لي الوزير: أين أبو سعيد من أبي علي، وأين علي بن عيسى منهما، وأين ابن المراغي أيضًا من الجماعة، وكذلك المرزباني وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه؟ فكان مني الجواب: أبو سعيد أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج عن كل طريق، وألزم للجادة الوسطى

(١) في الإمتاع: ست وعشرين.

في الدين والخلق، وأروى للحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضر بركة على المختلفين، وأظهر أثرًا في المقتبسة.

ومما جاء في هذه المناظرة في اللغات والترجمة: إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك... فمن أين يجب أن نثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية... ومن فِقرها: وقال أبو سعيد: فأنت (أي متَّى) إذًا لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية، وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها وقد عَفَت منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذي كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية؟ قال متَّى: يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض، وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق. قال أبو سعيد: إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت، وقوَّمت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت[1]، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام، ولا بأخص الخاص، ولا بأعم العام، وإن كان هذا لا يكون، وليس في طبائع اللغات، ولا في مقادير المعاني، فكأنك تقول بعد هذا: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه. قال متَّى: لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة،

(١) حاف يحاف حيفًا: جار وظلم، والتاث: اختلط.

والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر، وانتشر ما انتشر، ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصناعة، ولم نجد هذا لغيرهم. قال أبو سعيد: أحطأت وتعصبت، وملت مع الهوى، فإن العلم مبثوث في العالم. ولهذا قال القائل:

العلـــم في العـــالم مبثـــوث ونحـــوَه العاقـــل محثـــوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض، ولهذا غلب علم في مكان دون مكان، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة. ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك، لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطرة الظاهرة، والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأن السكينة نزلت عليهم، والحق تكفل بهم، والخطأ تبرأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم، وهذا جهل ممن يظنه بهم، وعناد ممن يدعيه عليهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيئون في أحوال...

قال أبو حيان: هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الشيخ الصالح بإملائه، وكان أبو سعيد روى لمعًا من هذه القصة، وكان يقول: لم أحفظ على نفسي كل ما قلت، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضًا، وقد اختل كثير منه. قال علي بن عيسى: وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد، ولسانه المتصرف، ووجهه المتهلل، وفوائده المتتابعة. وقال له الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكبادًا، وأقررت عيونًا،

وبيضت وجوهًا، وحكت طرازًا لا تبليه الأيام، ولا يتطرقه الحدثان، قال: قلت لعلي بن عيسى: وكم كانت سن أبي سعيد يومئذ، قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[١].

وقال في الإمتاع والمؤانسة[٢]: سأل وزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفاء بقوله: إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولًا يريبني، ومذهبًا لا عهد لي به، وكناية عما لا أُحققه، وإشارة إلى ما لا يتوضح شيءٌ منه، يذكر الحروف ويذكر النقط، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا؛ وأشهد منه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها، وينتفخ بذكرها فما حديثه وما شأنه وما دِخْلَته[٣]؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثر عنده، ولك معه نوادر معجبة؛ ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه، وخافي مذهبه.

---

(١) لهازم: جمع لهزمة، وهما عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين.

(٢) نقل القفطي في أخبار الحكماء أن التوحيدي ألف كتاب الإمتاع والمؤانسة لشيخه أبي سليمان المنطقي، والحقيقة أنه ألفه لأبي الوفا المهندس الذي أوصله إلى الوزير عبد الله العارض وطالبه أن يقيد له ما يجري في مجلسه من الأحاديث والآداب، فكتب التوحيدي ما كان يجري خلال أربعين ليلة في مجلس الوزير، فكان كتاب الإمتاع والمؤانسة، قال القفطي: وهو كتاب ممتع على التحقيق لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر وغاص كل لجة. قال: وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: «ابتدأ أبو حيان كتابه صوفيًا، وتوسطه محدثًا، وختمه سائلًا ملحفًا»، وحقيقة -كما قال الصقلي- فإن التوحيدي أورد في الإمتاع والمؤانسة ولا سيما في آخره كلامًا في الاستجداء غريب صدوره منه، ولا يجد المدافع حجة يعتذر بها عن قوله، وهذا كل ما يعاب على أخلاقه.

(٣) مذهبه ونيته.

فقلت: أيها الوزير، أنت الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالاختبار والاستخدام، وله منك الإمرة القديمة، والنسبة المعروفة. فقال: دع هذه وصفه لي. فقلت: هناك ذكاءُ غالب، وذهن وقاد، ومتسع في قول النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع المقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن، إما بالشدو[1] الموهم، وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم. قال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلت: لا ينسب إلى شيءٍ، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيءٍ، وغليانه بكل باب، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زمنًا طويلا، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن معشر اليستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المِهْرَجاني والعَوَقي وغيرهم فصحبهم وخدمهم.

وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، وذلك أنهم قالوا: إن الشريعة قد دُنّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية؛ فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرسًا وسموها: «رسائل إخوان الصفاء» وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها في الوراقين، ووهبوها للناس، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة، والطرق المموهة.

---

(١) الشدو: القليل من كل كثير.

قال الوزير: فهل رأيت هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات، وتلفيقات وتلزيقات، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أيامًا، وتبحرها طويلًا، ثم ردها عليَّ وقال: تعبوا وما أغنوا، ونَصِبوا وما أَجْدَوْا، وحاموا وما وردوا، وغَنَّوْا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا ففلفلوا[١]، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة، وهذا مرام دونه حدد[٢]. وقد تورد[٣] على هؤلاءِ قوم كانوا أحدَّ أنيابًا، وأحضر أسبابًا، وأعظم أقدارًا، وأرفع أخطارًا، وأوسع قوى، وأوثق عرى فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أملوه، وحصلوا على لوثات[٤] قبيحة، ولطخات واضحة موحشة، وعواقب مخزية، فقال له البخاري بن العباس: ولِمَ ذلك أيها الشيخ؟ فقال: إن الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق، من طريق الوحي وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه، والمنبه عليه، وهناك يسقط (لِمَ) ويبطل (كيف) ويزول (هلا) ويذهب (لو وليت) في الريح إلخ. هذه حقيقة جمعية إخوان الصفاء، وصفها التوحيدي

---

(١) شَعْر مفلفل: شديد الجعودة، وتفلفل شعر الأسود: اشتدت جعودته، وهلهلوا: نسجوا نسجًا سخيفًا.

(٢) ممتنع باطل.

(٣) ورد: أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورد.

(٤) اللوثة بالضم: الحمق والهيج ومس الجنون.

أجمل وصف. وما أحلى قوله في ابن رفاعة: إنه تصرف في كل فن إما بالشدو الموهم، وإما بالتوسط المفهم، وإما بالتناهي المفحم.

ومن رسائله ما رسمه بأنها كتبت بعد استئذانه صاحبه الوزير في كتاب الإمتاع والمؤانسة: بسم الله الرحمن الرحيم، أيها الوزير، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحكم آمالك، ووصل توفيقه بمبالغ مرادك في أقوالك وأفعالك، ومكَّنك من نواصي أعدائك، وثبت أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك. يجب على كل من آتاه الله رأيًا ثاقبًا، ونصحًا حاضرًا، وتنبهًا نافعًا، أن يخدمك متحريًا لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك، قاضيًا بذلك حق الله عليه في تقويتك وحياطتك. وإني أرى على بابك جماعة ليست بالكثيرة -ولعلها دون العشرة- يؤثرن لقاءك والوصول إليك، لما تجنّ صدورهم من النصائح النافعة، والبلاغات المجدية، والدلالات المفيدة، ويرون أنهم إذا أُهلوا لذلك فقد قضوا حقك، وأدوا ما وجب عليهم من حرمتك، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك، وتقديمك وتكريمك؛ والحجاب قد حال بينهم وبينك، ولكل منهم وسيلة شافعة، وخدمة للخيرات جامعة، منهم -وهو أهل الوفاء- ذوو كفاية وأمانة ونباهة ولباقة؛ ومنهم من يصلح للعمل الجليل، ولرتق الفتق العظيم؛ ومنهم من يُمتع إذا نادم، ويسكر إذا اصطنع، ويبذل المجهود إذا رُفع؛ ومنهم من ينظم الدر إذا مدح، ويضحك الثغر إذا مزح؛ ومنهم من قعد به الدهر لسِنِّه العالية وجلابيبه البالية، فهو موضع الأجر المذخور، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور؛ ومنهم طائفة أخرى قد عكفوا في بيوتهم على ما يعينهم من أحوال أنفسهم، في تزجية عيشهم، وعمارة آخرتهم، وهم مع ذلك من وراء خصاصةٍ مُرة، ومؤنٍ غليظة وحاجات متوالية، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة، ولو وثقوا بأنهم إذا عرضوا أنفسهم عليك، وجهزوا ما معهم من الأدب والفضل إليك حظوا منك، واعتزوا بك، لحضروا بابك،

وجشموا المشقة إليك؛ لكن اليأس قد غلب عليهم، وضعفت مُنَّتهم، وعُكس أملهم، ورأوا أن سف التراب أخف من الوقوف على الأبواب، إذا دنوا منها دفعوا عنها؛ فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك، وأدنيتهم بسعة ذرعك وكرم خِيمِك، وأصغيت إلى مقالتهم بسمعك، قابلته بملءِ عينك كان في ذلك بقاء للنعمة عليك، وصيت فاشٍ بذكرك، وثواب مؤجل في صحيفتك، وثناء معجل عند قريبك وبعيدك؛ والأيام معروفة بالتقلّب، والليالي ماخضة بما يتعجب منه ذو اللب، والمجدود من جُدّ في جَده، أعني من كان جده في الدنيا موصولًا بحظه من الآخرة، ولأن يوكل العاقل بالاعتبار بغيره، خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به.

أيها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها، قلَّ من يفي بَربِّها، أو يتأتى لها، أو يعرف حلاوتها، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة والحساب، وسمعت ابن سورين يقول: آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع، واستحلى الصنائع، وارتاح للذكر الطيب، واهتز للمديح، وطرب على نغمة السائل، واغتنم خلة المحتاج، وانتهب الكرم انتهابًا، والتهب في عشق الثناء التهابًا، أبو محمد المهلبي، فإنه قدَّم قومًا ونوَّه بهم، ونبَّه على فضلهم، وأحوج الناظرين في أمر الملك إليهم، وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباس بن الحسين، ومنهم ابن معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليَفُرَني، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وأبو الخطاب الصابئ، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد بن الهيثم، وابن حفص صاحب الديوان، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري، وابن قريعة، وأبي حامد المروروزي، وأبي عبد الله البصري، وأبي سعيد السيرافي، وأبي محمد الفارسي، وابن درستويه، وابن البقال، والسبري، ومن لا يحصي كثرة من التجار والعدول.

وقال لي ابن سورين: كان أبو محمد يطرب على اصطناع الرجال كما يطرب سامع الغناء على الشبابير[1]، ويرتاح كما يرتاح مدير الكأس على العشائر. وقال عنه: إنه قال: والله لأكونن في دولة الديلم أول من يذكر، إن فاتني أن كنت في دولة بني العباس آخر من يذكر.

فلولا أنك -أدام الله دولتك- أذنت لي أن أكتب إليك كلَّ ما هجس في النفس، وطلع به الرأي، مما فيه مردّ على ما أنت فيه من هذا الثقل الباهظ، وتنبيه على ما تباشره بكاهلك الضخم، لم يكن خطري يبلغ مواجهتك بلفظ يثقل، وإشارة تغلظ، وكناية تخدش، لكنك والله يأخذ بيدك، ويقرن الصنع الجميل بظاهرك وباطنك قد رخصتِ لي في ذلك، وخصصتني به من بين غاشية بابك، وخدم دولتك فلذلك أقول ما أقول معتمدًا على حسن تقبلك، وجميل تكفلك، ومنتظر تفضلك؛ وليس في أبواب السياسة شيء أجدى وأنفع، وأنفى للفساد وأقمع، من الاعتبار الموقظ للنفس، الباعث على أخذ الحزم، وتجريد العزم؛ فإن الوكال والهوينا قلما يفضيان بصاحبهما إلى درك مأمول، ونيل مراد، وإصابة متمنى، وقد قال رجل كبير الحكمة، معروف الحنكة: المعتَبَر كثير والمعتَبِر قليل. وصدق هذا الرجل الصالح، وهو الحسن البصري: لو اعتبر من تأخر بمن تقدم، لم يكن من يتحسر في الناس ويندم، ولكن الله بنى هذه الدار على أن يكون أهلها بين يقظة ونوم، وبين فرح وترح، وبين حيطة وورطة، وبين حزم وغفلة، وبين نزاع وسلوة، لكن الآخذ بالحزم -وإن جرى عليه مكروه- أعذر عند نفسه عند كل من كان في مَسْكه، من الملقي بيده والمتدلي بغروره، والساعي في ثبوره؛ وما وهب الله العقل لأحدٍ إلا وقد عرَّضه للنجاة، ولا حلّاه بالعلم إلا وقد دعا إلى العمل بشرائطه، ولاهداه الطريقين (أعني الغي والرشد) إلا ليزحف إلى أحدهما بحسن الاختيار.

---

(١) جمع شبور وهو من آلات الموسيقى.

ثم ذكر له ما وقع لبعض الوزراء لما أهملوا أمر أعدائهم كيف كانت عاقبتهم، وختم بقوله: وللأمور أيها الوزير ظهور وبطون، وهوادٍ وأعجاز، وأوائل وأواخر، وليس على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرّز في المبادئ، ولهذا قال القائل:

لأمر عليهم أن تتمّ صدوره ... وليس عليهم أن تتم عواقبه

وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لمت نفسي على فوت أمر بدأته بحزم، ولا حمدتها على درك أمر بدأته بعجز.

هاهنا ناس إذا تلاقوا بنفث بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، وليس يصح كل ما يقال فيُروى على وجهه، وليس يخفى أيضًا كل ما يجري فيمسَك عنه؛ والأمور مرجة، والصدور حرجة، والاحتراس واجب، والنصح مقبول، والرأي مشترك، والثقة بالله من اللوازم على من عرفه وآمن به، وليس من الله عز وجل بدٌّ على كل حال. والله أسأل الدفاع عنك، والوقاية لك، في مصبحك وممساك، وفي مبيتك ومقيلك، وشهادتك وغيبتك... إلى هاهنا انتهى نَفَسي بالنصح وإن كانت شفقتي تتجاوزه، وحرصي يستعلي عليه، لكني خادم، وكما يجب عليَّ أن أخدمَ بنيات الصدر، فينبغي أن ألزم بحسن الأدب، والله إني لوادّ مخلص، وعبد طائع، ورجائي اليوم أقوى من رجائي أمس، وأملي غدًا أبسط من أملي اليوم، أشكو إليك الأرق بالليل فكرًا فيما يقال، وتحفظًا مما ينال، وتوهمًا لما لا يكون إن كان، وشر العدا الذين يتمنون لأولي نعمتهم الردى، ويبيتون النكائث[1] ويكسرون الأجفان، ويتجاوزون الأعين، ويتجاهرون بالأذى إذا تلاقوا، ويتهامسون بالألسن إذا تدانوا، والله يصرع جدودهم، ويضرع خدودهم بين يديك، وهذه الرقة مني

(١) النكتة: خطة صعبة ينكت بها القوم.

والحفاوة، وهذه الرعشة والقلق، وهذا التقبع والتفزع كله، لأني ما رأيت مثلك، ولا شاهدت شبهك، كرم خيم، ولين عريكة، وجود بنان، وحضور بشر، وتهلل وجه، وحسن وعد، وقرب إنجاز، وبذل مال، وحب حكمة. قد شاهدت ناسًا في السفر والحضر، صغارًا وكبارًا وأوساطًا فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود، ويرتدي بالعفو، ويتأزر بالحلم، ويعطي بالجزاف، ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والإتحاف بالإتحاف، غيرك. والله إنك لتهب الدرهم والدينار كأنك غضبان عليهما، وتطعم الصادر والوارد كأن الله قد استخلفك على رزقهما؛ ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة، والخيل العتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يضن به كل جواد؛ وما هذا من سجايا البشر إلا أن يكون فاعل هذا نبيًّا صادقًا، ووليًّا لله مجتبى، فإن الله قد أمن هذا الصنف من الفقر، ورفع من قلوبهم عز المال، وهوّن عليهم الإفراج عن كل منفس ياقوتًا كان أو درًّا، ذهبًا كان أو فضة؛ كفاك الله عين الحاسدين، ووقاك كيد المفسدين، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رءوس الأشهاد، وكانوا كحصى فجعلتهم كالأطواد؛ وهم يكفرون أياديك، ويوالون أعاديك، ويتمنون لك ما أرجو الله أن يعصبه برءوسهم، وينزله على أرواحهم، ويذيقهم وبال أمرهم، ويجعلهم عبرة لكل من يراهم ويسمع بهم، كان الله لك ومعك، وحافظك وناصرك.

أطلت الحديث تلذذًا بمواجهتك، ووصلته خدمة لدولتك، وكررته توقعًا لحسن موقعه عندك، وأعدته وأبديته طلبًا للمكانة في نفسك، وأرجو -إن شاء الله- ألا أحرم هبة من ريحك، ونسيمًا من سحرك، وخيرة بنظرك. لم أوفق في هذه الكلمة الأخيرة، والله ما يمر بي يأس من إنعامك فأقويه بالرجاء، ولا يعتريني وهم في الخيبة لديك فأتلافاه بالأمل. إنما قصارى أمنيتي إذا حُكّمت أن أعطى فيك سؤلي

بالبقاء المديد، والأمر الشديد، والعدو الصريع، والولي الرفيع، والدولة المستتبة، والأحوال المستحبة، والآمال المبلوغة، والأماني المدركة، مع الأمر والنهي النافذين بين أهل الخافقين، والله يبلغني ذلك بطوله ومنّه.

وآخر ما أقول أيها الوزير: مر بالصدقات فإنها مجلبة السلامات والكرامات، مدفعة للمكاره والآفات؛ واهجر الشراب، وأدم النظر في المصحف، وافزع إلى الله في الاستخارة، وإلى الثقات بالاستشارة، ولا تبخل على نفسك برأي غيرك، وإن كان خاملًا في نفسك قليلًا في عينك، فإن الرأي كالدرة التي ربما وجدت في الطريق وفي المزبلة، وقلَّ من فزع إلى الله بالتوكل عليه، وإلى الصديق بالإسعاد منه إلا أراه الله النجاح في مسألته، والقضاء لحاجته، والسلام.

وفي كتاب الإمتاع أيضًا وصف عصره فقال: وقد بينا بهذا الدهر الخالي من الديانين الذين يُصلحون أنفسهم ويُصلحون غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم (وهنا أبلغ في وصف الكرام وما يأتيهم به كرمه كأنه يستجدي أرباب الجود ويزين لهم هذه الصفة ويعرفهم ما يربحون منها ثم قال): نعم، وكانوا إذا وُلُّوا عدلوا، وإذا ملكوا أفضلوا، وإذا أعطوا أجزلوا، وإذا سئلوا أجابوا، وإذا جادوا أطابوا، وإذا عانوا صبروا، وإذا نالوا شكروا، وإذا أنفقوا واسوا، وإذا امتُحنوا تأسوا، وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب[1] مأمونة، وإلى ديانات قوية، وأمانات ثمينة، وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة، ومع عباد الله معاملة جميلة، ورحمة واسعة، ومعدلة فاشية، وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة، وكانت شيمتهم الصفح والمغفرة، وربحهم من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة، وكانوا إذا

(١) النقائب من جملة معانيها: العقول، والضرائب واحدها ضريبة: الطبيعة.

تلاقوا تواصوا بالخير، وتناهوا عن الشر، وتنافسوا في اتخاذ الصنائع، وادخار البضائع (أعني: صنائع الشكر، وبضائع الأجر) فذهب هذا كله، وتاه أصله، وأصبح الدين وقد أُخلق لَبوسه، وأُوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، وعاد كل شيء إلى كدره وخاثره، وفاسده وضائره، وحصل الأمر على أن يقال: فلان خفيف الروح، وفلان حسن الوجه، وفلان ظريف الجملة، حلو الشمائل، طاهر الكيس، قوى الدست[1] في الشطرنج، حسن اللعب في النرد، جيدٌ في الاستخراج، مدبر الأموال، بذول الجهد، معروف بالاستقصاء، لا يغضي عن دانق ولا يتغافل عن قيراط، إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره، والكاتب من تسطيره...

وبمثل هذا اللسان وصف عصره في المقابسات بقوله: فقد أصبحنا في هذه الدار كأنما هي قاع أملس، أو أثر أخرس، لم يبق من يرضى هديه، أو يقتبس علمه، أو يُخطب عُرفه، أو يقتفى جوده، أو يقتدح زنده، أو يستفاد لفظه، أو يتوخى مكانه، أو يعرف حده، بأدب من الآداب عليه، أو يباشر بوجه من الوجوه إليه، وما ذاك إلا لنَغَل القلوب، ودخل الأعراق، وخُلُوقة الدين، وغلبة القحة، وارتفاع المراقبة، وسقوط الهيبة، ورفض السياسة، والتبجح بالفحشاء والمنكر، ولعمري ما زالت الدنيا على سجيتها المعروفة، وعاداتها المألوفة، ولكن اشتدت مؤنتها، وتضاعفت اليوم زينتها، بفقد السائس الصارم، وبعد العابد العالم، وبانقراض أهل الحياء والكرم، وبتصالح الناس على التعادي والتظالم.

وقال الوزير في بعض الليالي: قد والله ضاق صدري بالغيظ لما يبلغني عن العامة من خوضها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن

(١) الدست: الحيلة.

مكنون أحوالنا ومكتوم شأننا، وما أدري ما أصنع بها، وإني لأهمّ في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنة وأيدٍ وأرجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة، ويقطع هذه العادة، لحاهم الله، ما لهم لا يُقبلون على شئونهم المهمة، ومعايشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولِمَ ينقبون عما ليس لهم، ويرجفون بما لا يجدي عليهم؟ ولو حققوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدة ولا فائدة؛ وإني لأعجب من لهجهم وشغفهم بهذا الخلق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة، وقد تكرر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكار بين الصغار والكبار، ولقد تعايي عليَّ هذا الأمر وأُغلق دوني بابه، وتكاثف عليَّ حجابه، والله المستعان.

فقلت: أيها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعت من شيخنا أبي سليمان، وهو مَن تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشفقة عليها من كل هبة ودبة؛ والآخر مما سمعته من شيخ صوفي وفي الجوابين فائدتان عظيمتان، ولكن الجملة خشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مر، ومن توخى الحق احتمل مرارته. قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس ينتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته وصدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس: عامتهم وخاصتهم، وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويهم، وراجحهم وشائلهم، أن يضجر مما يبلغه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة؛ منها: أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلومهم، وصبره أتم من صبرهم؛ ومنها أنهم إنما جُعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختبروا بتصريفهم على أمره ونيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكون عماد حاله معهم الرفق بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها أن العلاقة التي بين السلطان وبين

الرعية قوية؛ لأنها إلهية، وهي أوشج من الرحم التي تكون بين الوالد والولد، والملك والد كبير، كما أن الوالد ملك صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرفق به، والحنو عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر مما يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد غر، وقريب العهد بالكون، وجاهل بالحال، وعار من التجربة، كذلك الرعية الشبيهة بالولد، وكذلك الملك الشبيه بالوالد؛ ومما يزيد هذا المعنى كشفًا، وبكسبه لطفًا، أن الملك لا يكون ملكًا إلا بالرعية، كما أن الرعية لا تكون رعية إلا بالملك، وهذا من الأحوال المتضايفة، والأسماء المتناصفة، وبسبب هذه العلاقة المحكمة، والوصلة الوشيجة، ما لهجت العامة بتعرف حال سائسها، والناظر في أمرها، والمالك لزمامها، حتى تكون على بيان من رفاهة عيشها، وطيب حياتها ودرور مواردها، بالأمن الفاشي بينها، والعدل الفائض عليها، والخير المجلوب إليها، وهذا أمر جار على نظام الطبيعة، ومندوب إليه أيضًا في أحكام الشريعة.

قال: ولو قالت الرعية لسلطانها: لِمَ لا نخوض في حديثك، ولا نبحث عن غيب أمرك؟ ولِمَ لا نسأل عن دينك ونحلتك وعادتك وسيرتك؟ ولِمَ لا نقف على حقيقة حالك في ليلك ونهارك، ومصالحنا متعلقة بك، وخيراتنا متوقعة من جهتك، ومسرتنا ملحوظة بتدبيرك، ومساءتنا مصروفة باهتمامك، وتظلمنا مرفوع بعزك، ورفاهيتنا حاصلة بحسن نظرك وجميل اعتقادك، وشائع رحمتك، وبليغ اجتهادك، ما كان جواب سلطانها وسائسها؟ أما كان عليه أن يعلم أن الرعية مصيبة في دعواها التي بها استطالت؟ بلى والله، والحق معترف به وإن شغب الشاغب، وأعنت المعنت.

قال: ولو قالت الرعية أيضًا: ولِمَ لا نبحث عن أمرك؟ ولِمَ لا تسمع كل غث وسمين منا؟ وقد ملكت نواصينا، وسكنت ديارنا، وصادرتنا على أموالنا، وحلت بيننا وبين ضياعنا، وقاسمتنا مواريثنا، وأنسيتنا رفاعة العيش وطيب الحياة، وطمأنينة القلب، فطرقنا مخوفة، ومساكننا منزولة، وضياعنا مقطعة، ونعمنا مسلوبة، وحريمنا مستباح، ونقدنا زائف، وخراجنا مضاعف، ومعاملتنا سيئة، وجنديّنا متغطرس، وشرطينا منحرف، ومساجدنا خربة، ووقوفها منتهبة، ومارستاناتنا خاوية، وأعداؤها مستكبلة، وعيوننا سخينة، وصدورنا مغيظة، وبليتنا متصلة، وفرحنا معدوم، ما كان الجواب أيضًا عما قالت وعما لم تقل، هيبة لك، وخوفًا على أنفسها من سطوتك وصولتك؟

وحكى لنا في عرض هذا الكلام أنه رفع إلى الخليفة المعتضد أن طائفة من الناس يجتمعون بباب الطاق ويجلسون في دكان شيخ تبّان، ويخوضون في الفضول والأراجيف وفنونٍ من الأحاديث، وفيهم قوم سراة وتُنّاء وأهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس، وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم، فلما عرف الخليفة ذلك ضاق ذرعًا، وحرج صدرًا، وامتلأ غيظًا، ودعا بعبيد الله بن سليمان، ورمى بالرقيعة إليه، وقال: انظر فيها وتفهمها. ففعل، وشاهد من تربد[1] وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، وشرد آلف صبره، وقال: قد فهمت يا أمير المؤمنين. قال: فما الدواء؟ قال: يتقدم بأخذهم وصلب بعضهم وإحراق بعضهم وتفريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشد، والهيبة أفشى، والزجر أنجع، والعامة أخوف. فقال المعتضد -وكان أعقل من الوزير-: والله لقد بردت لهيب غضبي بفورتك هذه، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة، وحططت عليَّ الرفق، من حيث أشرت بالخرق، وما علمت أنك تستجيز هذا في دينك وهديك

(١) يربد: تغير.

ومروءتك، ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبذول النصيحة والنظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكف عن الجهل، وتبعثني على الحلم، وتحبب إليَّ الصفح، وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء، وقد ساءني جهلك بحدود العقاب وبما تقابل به هذه الجرائر، وبما يكون كفأ للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي ودللت على قسوة القلب وقلة الرحمة ويبس الطينة ورقة الديانة، أما تعلم أن الرعية ودعية الله عند سلطانها، وأن الله يسائله عنها كيف سستها؟ ولعله لا يسألها عنه، وإن سألها فليؤكد الحجة عليه منها؛ ألا تدري أن أحدًا من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم لحقه أو لحق جاره، وداهية نالته أو نالت صاحبًا له، وكيف نقول لهم: كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معايشكم، غير خائضين في حديثنا، ولا سائلين عن أمرنا، والعرب تقول في كلامها: غلبنا السلطان فلبس فروتنا، وأكل خضرتنا، وحنق المملوك على المالك معروف، وإنما يحتمل السيد على صروف تكاليفه ومكاره تصاريفه، إذا كان العيش في كنفه رافقًا[1]، والأمل فيه قويًّا، والصدر عليه باردًا، والقلب معه ساكنًا، أتظن أن العمل بالجهل ينفع، والعذر به يسع، لا والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت، وجه صاحبك وليكن ذا خبرة ورفق، ومعروفًا بخير وصدق، حتى يعرف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كل واحد منها في معاشه، وقدر ما هو متقلب فيه ومنقلب إليه، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به، ومن كان سيء الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله ويفيده طمأنينة باله؛ ومن لم يكن من هذا الرهط، وهو غني مكفي، وإنما تخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو فادع به وانصحه، ولاطفه، وقل له: إن لفظك مسموع، وكلامك مرفوع، ومتى وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك منك لم تجدك إلا في عرضة المقابر، فاستأنف لنفسك سيرة

(١) خصبًا واسعًا.

تسلم بها من سلطانك، وتحمد عليها عند إخوانك، وإياك أن تجعل نفسك عظة لغيرك بعد ما كان غيرك عظة لك؛ ولولا أن الأخذ بالجريرة الأولى مخالف للسيرة المثلى لكان هذا الذي تسمعه ما تراه، وما تراه تود أنك لو سمعته قبل أن تراه، فإنك يا عبيد الله إذا فعلت ذلك فقد بالغت في العقوبة، وملكت طرفي المصلحة، وقمت على سواء السياسة، ونجوت من الحوب والمأثم في العاقبة.

قال: وفارق الوزير حضرة [الخليفة]، وعمل بما أمر به على الوجه اللطيف، فعادت الحال ترف بالسلامة العامة، والعافية التامة، فتقدم إلى الشيخ التبان برفع حال من يقعد عنده حتى يواسى إن كان محتاجًا، ويصرَّف إن كان متعطلًا، وينصح إن كان متعقلًا.

فقال الوزير: ما سمعت مثل هذا قط، وما ظننت أن الخطب في مثل هذا يبلغ هذا القدر؛ فهات الجواب الآخر الذي حفظته عن الصوفي. فقلت: إن كان هذا كافيًا فإن ذلك فضل. فقال: هكذا هو، وإن فيما مر لكفاية، وما يزيد على الكفاية ولكن الزيادة من العلم داعية إلى الزيادة من العمل، والزيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم، والانتفاع بالعلم دليل على سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعًا، وبالآخر حاصدًا، وبأحدهما تاجرًا، وبالآخر رابحًا.

فوصلت الحديث وقلت: حدثني شيخ من الصوفية في هذه الأيام قال: كنت بنيسابور سنة سبعين وثلاثمائة، وقد اشتعلت خراسان بالفتنة، وتبلبلت دولة آل سامان بالجور وطول المدة، فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قاين وهي حصنه ومعقله، وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة، وعدة عميمة، وزينة فاخرة، وهيئة باهرة، وغلا السعر، وأخيفت السبل وكثر

الإرجاف، وساءت الظنون، وضجت العامة، والتبس الرأي، وانقطع الأمل، ونبح كل كلب من كل زاوية، وزأر كل أسد من كل أجمة، وضبح كل ثعلب من كل تلعة.

قال: وكنا جماعة غرباء نأوي إلى دويرة الصوفية لا نبرحها، فتارة نقرأ، وتارة نصلي، وتارة ننام، وتارة نهذي، والجوع يعمل عمله، ونخوض في حديث آل سامان، والوارد من جهتهم إلى هذا المكان، ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق، وتخطف الناس للناس، وشمول الخوف، وغلبة الرعب، وكان البلد يتقد نارًا بالسؤال والتعرف والإرجاف بالصدق والكذب، وما يقال بالهوى والعصبية؛ فضاقت صدورنا، وخبثت سرائرنا، واستولى علينا الوسواس. وقلنا ليلة: ما ترون يا صحابنا [ما] دفعنا إليه من هذه الأحوال الكريهة، كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع عليها الغارة والنهب، وما علينا من ولاية زيد، وعزل عمرو، وهلاك بكر، ونجاة بشر، نحن قوم رضينا في هذه الدنيا العسيرة، وهذه الحياة القيصرة، بكسرة يابسة، وخرقة بالية، وزاوية من المسجد، مع العافية من بلايا طلاب الدنيا، فما هذا [الذي] يعترينا من هذه الأحاديث التي ليس لنا فيها ناقة ولا جمل، ولا حظ ولا أمل، قوموا بنا غدًا حتى نزور أبا زكرياء الزاهد ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه، ساكنين معه مقتدين به، فاتفق رأينا على ذلك، فغدونا وصرنا إلى أبي زكرياء الزاهد، فلما دخلنا رحب بنا، وفرح بزيارتنا، وقال: ما أشوقني إليكم، وما ألهفني عليكم! الحمد لله الذي جمعني وإياكم في مقام واحد، حدثوني ما الذي سمعتم؟ وماذا بلغكم من حديث الناس، وأمر هؤلاء السلاطين؟ فرّجوا عني، وقولوا لي ما عندكم، فلا تكتموني شيئًا فما لي والله مرعى في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم، واقترن بخبرهم، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد، دهشنا واستوحشنا، وقلنا في أنفسنا: انظروا من أي شيء هربنا، وبأي شيء

عقلنا، وبأي داهية دهينا، قال: فخففنا الحديث وانسللنا فلما خرجنا قلنا: أرأيتم ما بلينا به، وما وقعنا عليه؟ {إن هذا لهو البلاء المبين}، ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل وعبادة وعلم وتفرد في صومعته حتى نقيم عنده إلى آخر النهار، فقد نبا بنا المكان الأول، وبطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل، فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد واستأذنا، فأذن لنا، ووصلنا إليه فسرَّ بحضورنا، وهش لرؤيتنا، وابتهج بقصدنا، وأعظم زيارتنا، ثم قال: يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس؟ فقد والله طال عطشي إلى شيء أسمعه، ولم يدخل عليَّ اليوم أحد فأستخبره وإن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة، فهاتوا ما معكم وما عندكم، وقصوا عليَّ القصة بفصها ونصها، ودعوا التورية والكناية. واذكروا الغث والسمين، فإن الحديث هكذا يطيب، ولولا العظم ما طاب اللحم، ولولا النوى ما حلا التمر، ولولا القشر لم يوجد اللب، فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا من الزاهد الأول، وخاطفناه الحديث، وودعناه وخرجنا، وأقبل بعضنا على بعض يقول: أرأيتم أظرف من أمرنا وأغرب من شأننا؟ انظروا من أي شيء كان تعريجنا {إن هذا لشيء عجاب}، وتلددنا وتبلدنا[1] وقلنا: يا أصحابنا، انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير، وإن كان مضربه[2] بعيدًا فإنا لا نجد سكوننا إلا معه، ولا نظفر بضالتنا إلا عنده، لزهده وعبادته وتوحده وشغله بنفسه مع زمانته[3] في بصره، وورعه وقلة فكره في الدنيا وأهلها؛ وطوينا الأرض إليه، ودخلنا عليه، وجلسنا حواليه في مسجده، ولما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده ويرحب به، ويدعو له ويقرب، فلما انتهى أقبل علينا وقال: أمن السماء نزلتم عليَّ؟ والله لكأني وجدت بكم مأمولي، وأحرزت غاية سؤلي، قولوا لي غير محتشمين: ما عندكم من أحاديث

(١) تلدد: تلفت يمينًا وشمالًا وتحير متبلدًا وتلبث.

(٢) مضربه: بيته.

(٣) زمانته: عاهته.

الناس؟ وما عزم [عليه] هذا الوارد؟ وما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قايين؟ وما الشائع من الأخبار؟ وما الذي يتهامس به ناس دون ناس؟ وما يقع في هواجسكم ويستبق إلى نفوسكم؟ فإنكم برد الآفاق، وجوالة الأرض، ولقاطة الكلام، ويتساقط إليكم ما يتعذر على عظماء الملوك وكبراء الناس. فورد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول والثاني، ومما زاد في عجبنا أنا كنا نعده في طبقة فوق طبقات جميع الناس، فخففنا الحديث معه، وودعناه، وخنسنا[1] من عنده، وطفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم وظهر لنا من حالهم وازدريناهم، وانقلبنا متوجهين إلى دويرتنا التي غدونا من ها مستطرقين كالين، فلقينا في الطريق شيخًا من الحكماء يقال له: أبو الحسن العامري، وله كتاب في التصوف قد شحنه بعلمنا وإشارتنا، وكان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد واطّلعوا على أسرار الله في العباد؛ فقال لنا: من أين درجتم؟ ومَن قصدتم؟ فأجلسناه في مسجد، وعصبنا حوله وقصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها، ولم نحذف منها حرفًا. فقال لنا: في طيّ هذه الحال الطارئة غيب لا تفقون عليه، وسر لا تهتدون إليه، وإنما غركم ظنكم بالزهاد، وقلتم: لا ينبغي أن يكون [الخبر عنهم] كالخبر عن العامة، لأنهم الخاصة، ومن الخاصة خاصّة الخاصة، لأنهم بالله يلوذون، وإياه يعبدون، وعليه يتوكلون، وإليه يرجعون، ومن أجله يتهالكون، وبه يتمالكون. قلنا له: فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء، وترفع هذا الستر، وتعرفنا منه ما وهب الله لك من هذا الغيب، لنكون شاكرين وتكون من المشكورين. فقال: نعم، أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها وساستها لما ترجو من رخاء العيش وطيب الحياة وسعة المال ودرور المنافع واتصال الجلب ونفاق السوق وتضاعف الربح؛ فأما هذه الطائفة العارفة بالله، العاملة لله، فإنها مولعة أيضًا بحديث الأمراء، والجبابرة العظماء لتقف

(١) تأخرنا.

على تصاريف قدرة الله فيهم، وجريان أحكامه عليهم، ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارههم في حال النعمة عليهم، والانتقام منهم، ألا ترونه قال -جل ثناؤه-: {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، وبهذا الاعتبار يستنبطون خوافي حكمته، ويطلعون على تتابع نعمته وغرائب نقمته، وهاهنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل، وكل نعيم غير نعيم الجنة حائل، ويصير هذا كله سببًا قويًا لهم في الضرع إلى الله، واللياذ بالله، والخشوع لله، والتوكل على الله، وينبعثون به من حران الإباء إلى انقياد الإجابة، ويتنبهون من رقدة الغفلة، ويكتحلون باليقظة من سنة السهو والبطالة، ويجدون في أخذ العتاد، واكتساب الزاد إلى المعاد، ويعملون في الخلاص من هذا المكان الحرج بالمكاره، المحفوف بالرزايا، الذي لم يفلح فيه أحد إلا بعد أن هدمه وثلمه، وهرب منه، ورحل عنه إلى محل لا داء فيه ولا غائلة؛ ساكنه خالد، ومقيمه مطمئن، والفائز به منعم، والواصل إليه مكرّم، وبين الخاصة والعامة في هذه الحال وفي غيرها فرق يضح لمن رفع الله طرفه إليه، وفتح باب السر فيه عليه، وقد يتشابه الرجلان في فعل، وأحدهما مذموم، والآخر محمود، وقد رأينا مصليًا إلى القبلة وقلبه في طر[1] ما في كمّ الآخر، فلا تنظروا من كل شيء إلى ظاهره إلا بعد أن تصلوا بنظركم إلى باطنه، فإن الباطن إذا وطأ الظاهر كان توحّدًا، وإذا خالفه إلى الحق كان وحدة، وإذا خالفه إلى الباطل كان ضلالة، وهذه المقامات مرتبة لأصحابها، وموقوفة على أربابها؛ ليس لغير أهلها فيها نفس، ولا لغير مستحقها منها قبس.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذه وما أشبهها، ويملأ صدورنا بما عنده حتى سررنا وانصرفنا إلى متعشانا وقد استفدنا على يأس

(١) الطر: الشق والقطع، والمراد السرقة، والطرارون: الذين يسرقون ما في جيوب الناس.

منا فائدة عظيمة لو تمنيناها بالغرم الثقيل، والسعي الطويل، لكان الربح معنا، والزيادة في أيدينا.

فلما سمع الوزير هذا عجب وقال: لا أدري أكلام أبي سليمان في ذلك الاحتجاج أبلغ، أم الحكاية عن المعتضد أشفى، أم رواية الشيخ الصوفي أطرف؟ وما علمت أن في البحث عن سر الإرجاف هذه اللطيفة الخفية، وهذه الحجة الجلية، وكنت أرى أن الصوفية لا يرجعون إلى ركن من العلم، ونصيب من الحكمة، وأنهم إنما يهذون بما لا يعلمون، وأن بناء أمرهم على اللعب واللهو والمجون. فقلت: لو جمع كلام أئمتهم وأعلامهم لزاد على عشرة آلاف ورقة عمن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة، سوى ما عند قوم آخرين لانسمع بهم، ولا يبلغنا خبرهم. قال: فاذكر لي جماعة منهم. قلت: الجنيد بن محمد الصوفي البغدادي العالم، والحارث بن أسد المحاسبي، ورُويم، وأبو سعيد الخراز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامي، والفتح الموصلي، وهو الذي سُمع وهو يقول: إلى متى ترددني في سكك الموصل، أما آن للحبيب أن يلقى حبيبه؟ فمات بعد جمعة.

فقال: هذا عجب، ولقد مر في هذا الفن ما كان فوق حسباني وأكثر مما كان في ظني، وكم من شيء حقير يطلع منه على أمر كبير.

ودوّن في بعض ليالي الإمتاع والمؤانسة ما يأتي، وفيه وصف أخلاق الناس وما يلقاه الوزراء من عنت الملوك قال:

ووصف بعض البلغاء التجار فقال: لا يوجد الأدب إلا عند الخاصة والسلطان ومدبريه، وأما أصحاب الأسواق فإنا لا نعدم من أحدهم خُلقًا دقيقًا، ودينًا رقيقًا، وحرصًا مسرفًا، وأدبًا مختلفًا، ودناءة معلومة، ومروءة معدومة، وإلغاء

اللفيف[١] ومجاذبة على الطفيف، يبلغ أحدهم غاية المدح والذم في علق واحد في يوم واحد مع رجل واحد، إذا اشتراه منه أو باعه إياه، إن باعيك مرابحة وخبّر بالأثمان، قوى الأيمان على البهتان، وإن قلدته الوزن أعنت لسان الميزان، ليأخذ برجحان أو يعطي بنقصان؛ وإن كان لك قِبَله حتى لواه محتجًا في ذلك بسنّة السوقيين، يرضى لك ما لا يرضى لنفسه، ويأخذ منك بنقد ويعطيك بغيره، ولا يرى أن عليه من الحق في المبايعة مثل ما له؛ إن استنصحته غشك، وإن سألته كذبك، وإن صدقته حربك، متمردهم صاعقة على المعاملين، وصاحب سمتهم نقمة على المسترسلين[٢]؛ قد تعاطوا المنكر حتى عُرف، وتناكروا المعروف حتى نُسي، يتمسكون من الملة بما أصلح البضائع، وينهون عنها كلما عادت بالوضائع[٣]؛ يُسرّ أحدهم بحيلة يرزقها لسلعة ينفقها، وغيلة لمسلم يحميه الإسلام، فإذا أحكم عيلته وغيلته غدا قادرًا على حرده، فغرَّ وضر وآب إلى منزله [بحطام قد جمعه مغتبطًا بما أباح من دينه] وانتهك من حرمة أخيه، يعدّ الذي كان منه حذقًا بالتكسُّب ورفقًا بالمطّلب، وعلمًا بالتجارة، وتقدمًا في الصناعة.

فلما بلغت قراءتي هذا الموضع قال الوزير: إن كان هذا الواصف عنى العامة بهذا القول فقد دخل في وصفه الخاصة أيضًا، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلا شائعة في أصناف الناس من الجند والكتّاب والتنّاء والصالحين وأهل العلم؛ لقد حال الزمان إلى أمر لا يأتي عليه النعت، ولا تستوعبه الأخبار، وما

---

(١) اللفيف: الصديق.

(٢) السمت: هيئة أهل الخير وطريقتهم. والمسترسلون: من استرسل إليه إذا انبسط إليه واستأنس ثقة به واتكالًا على ما بينهما من ود وصلة.

(٣) الخسائر.

عجبي إلا من الزيادة على مر الساعات، ولو قوف لعلّه كان يرجي بعض ما قد وقع اليأس منه، واعترض القنوط دونه.

مثال من كتابه الصداقة والصديق قال في مقدمته: «اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا، واستر علينا فقد أعورنا، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب، وتنقي الجيوب حتى نعيش في هذه الدار مصطلحين على خير، مؤثرين للتقوى، عاملين بشرائط الدين، آخذين باطراف المروءة، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين، متزودين للعاقبة التي لا بد من الشخوص إليها، ولا محيد عن الاطلاع عليها، إنك تؤتي من تشاءُ ما تشاءُ.

· سُمع مني في وقت بمدينة السلام، كلام في الصداقة والعشرة، والمؤاخاة والألفة، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ، والوفاء والمساعدة، والنصيحة والبذل، والمؤاساة والجود والتكرم، مما قد ارتفع رسمه بين الناس، وعُفي أثره عند العام والخاص، وسئلت إثباته ففعلت، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يُستفاد منها، ويُنتفع بها في المعاش والمعاد. وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول: اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتني حتى يبور الجهل كما بار العقل، ويموت النقص كما مات الفهم. وأقول: اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء، والفرج معدوم، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم، والبلوى فيه مشهورة، والعجيج منه معتاد.

فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومؤاتاة

خُلُقية. فمن أين هذا وكيف هو؟ فقال: يا بني اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكونًا لا يَرِثَّان على الدهر، ولا يَحُولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع، ومواقع الكواكب، مشاكلة عجيبة، ومظاهرة غريبة حتى إنا نلتقي كثيرًا في الإرادات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأني هو فيها أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل. قال: ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك وأن سهامنا واحدة، وأنصابنا منها متساوية، أو قريبة من التساوي، فعجب وازداد بصيرة في إخلاص الصداقة، وتوكيد العلاقة، فقلت لأبي سليمان كيف يصح هذا، وأنت مطالبك في الفلسفة، وصورك مأخوذة من الحكمة، وقُتَيبَتُك[1] مجموعة من الحقائق، وخوضك في الغوامض والدقائق، وذاك رجل في عداد القضاة، وجلة الحكام، وأصحاب القلانس، ومخاضه الظاهر الذي عليه الجمهور، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم، فقال: هذا هو الذي انفردنا عنه، بعد أن ازدوجنا عليه، والأصل أبدًا مخالف للفرع، لا خلاف الضد للضد، ولكن خلاف الشكل للشكل، وكان مشتريه خاليًا من قوة زحل، فبرَّز في حلبة القضاة وكان المشتري لي مقتبسًا من زحل فظهرت بما ترى، فجمعتنا المشاكلة على العلم، وفرقنا الاختلاف بالفن.

قلت: هذا والله طريف، ومما يزيد في طرافته أنك من سجستان، وهو من الصَيْمَرة، فقال: الأمكنة في الفلك أشد تضامًا من الخاتم في إصبعك، وليس لها هناك هذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية، من بلد إلى بلد، بفراسخ تقطع، وجبال تعلى، وبحار تُخرق، فقلت: هل تجد عليه في شيءٍ أو يجد عليك في شيء؟

(١) القتبية: تصغير القتبة، وهي الأمعاء.

فقال: وجدي به في الأول، قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفي مني فيما يخالف هواي باللمحة الضئيلة، وأكتفي أنا أيضًا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا، كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذاك مقنع، وإليه مفزع؛ وقلما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا ندَّت عن صدري إلى لفظي، وذاك للصفاء الذي نتساهمه، والوفاء الذي نتقاسمه، والباطن الذي نتفق عليه، والظاهر الذي نرجع إليه، والأصل الذي رسوخنا فيه، والفرع الذي تشبثنا به، والله ما يسرني بصداقته حُمر النَّعم، ولا أجدبها بحياتي ما أجد بحياتي لي، وإذا كنت أعشق الحياة لأني بها أحيا، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجني لي ثمرتها، وجلب إليَّ روحها، وخلط بي طيبها وحلاوتها. وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب، وأما أنا فما عرفته إلا قاضيًا جليلًا صاحب جد وتفخيم، وتوقير وتعظيم، وكان مع ذلك بسيط اللسان، شريف اللفظ، واسع التصرف، لطيف المعاني، بعيد المرامي، يذهب مذهب أبي حنيفة.

ثم قال أبو سليمان: الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة، شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلة فيها غير مأمونة وكسرها غير مجبور، قال: فأما الملوك فقد جَلُّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفى بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى، والشائق والاستحلاء والاستخفاف، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم لانتشابهم[1] بهم، وانتسابهم إليهم، وولوع طورهم بما يصدر عنهم، ويرد عليهم. وأما التُّنَاء[2] وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا

(١) انتشب به: اعتلق.

(٢) التانئ: الساكن أو الأهالي، وتنأ: أقام.

نفير. وأما التجار فكسب الدوانيق سدٌّ بينهم وبين كل مروءة، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة. وأما أصحاب الدين والوزع، فعلى قلتهم، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى، وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى. وأما الكُتّاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد، والتماري والتماحك، فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل، وأما أصحاب المذاب والتطفيف[١] فإنها رجرجة[٢] بين الناس، لا محاسن لهم فتذكر، ولا مساعي فتنشر، ولذلك قيل لهم: همج ورعاع، وأوباش وأوتاش[٣]، ولغيف[٤] وزعانف، وداصة[٥] وسُقاط وأنذال وغوغاء؛ لأنهم من دقة الهم، وخساسة النفوس، ولؤم الطباع، على حال لا يجوز أن يكونوا في خومة المذكورين، وعصابة المشهورين. فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها، الزائغة على غير جهاتها، علل وأسباب، لو نفّس الزمان قليلًا لكنا ننشط لشرحها، وذكر ما قد أتى النسيان عليه، وعفا أثره الإهمال، وشغل عنه طلب القوت، ومن أين يظفر بالغداء، من كان عاجزًا عن الحاجة، وبالعشاء من كان قاصرًا عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طِمْرين[٦] للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف

(١) التطفيف: نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن، والمطففون: الذين ينقصون المكيال والميزان، والمذاب: جمع مذبة بكسر الميم: ما يذب به الذباب، وهي هنة تسوى من هلب الفرس ويقال: أذنابها مذابها، وهو مجاز.

(٢) الرجرجة: الحمقى والمهازيل.

(٣) الوتش: القليل من كل شيء ورذال الناس، ولعلها الأوقاش وهم الأوباش أيضًا.

(٤) اللغيف: من يأكل مع لصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم.

(٥) جمع دائص وهو اللص أو من يتتبع الولاة.

(٦) الطمر: الثوب الخلق.

يهرول وراء الخير المدبر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكي إلى غير رحيم، ولكن حال الجريض دون القريض[١].

ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ، والكمد والومد[٢]، وكأني بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها وأمرَّ نقده عليها، وأنكر عليَّ التطويل والتهويل بها، وإنما أشرت بهذا إلى غيرك، لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، واطلاعك على دخلتي، واستمراري على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي، ونكثا مرَّتي[٣]، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأَسى، وحجباني عن الأُسَى[٤]، لأني فقدت كل مؤنس وصاحب، ومرافق مشفق، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقَّال أو عصار، أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني[٥] بصنانه، وأسكرني بنتنه. فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخُلُق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملًا للأذى، يائسًا من جميع من ترى، متوقعًا لما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أُفول، وظل التلبث إلى قلوص».

---

(١) الجريض: الغصة من الجرض وهو الريق، والقريض الشعر، وأصل المثل: أن رجلًا كان له ابن نبغ في الشعر فنهاه أبوه عن ذلك، فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك، فأذن له أبوه في قول الشعر، فقال هذا القول.

(٢) الغضب.

(٣) المرة بكسر الميم: قوة الخلق وشدته. وأنفضوا: أرملوا، أو هلكت أموالهم وفني زادهم أو أفنوه، والاسم كسحاب وغراب.

(٤) الأَسى بالفتح: الحزن، والأسى بالفتح والضم: واحدها أسوة ما يأتسى به الحزين.

(٥) أسدرني: حيرني. والصنان: ذفر الإبط.

قال التوحيدي بعد ذكر هذه المقدمة: إن سبب إنشائه هذه الرسالة في الصداقة والصديق أنه ذكر (شيئا منها لزيد بن رفاعة أبي الخير فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلثمائة، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة، حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أذلاها[1] جارية)، فأشار عليه ابن سعدان أن يدونه، فجمع هذه الرسالة وأبطأ عن تحريرها، فلما مر على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها.

وقال في مكان آخر: «قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق، وما يتصل بالوفاق والخلاف، والهجر والصلة، والعتب والرضا، والمذق[2] والإخلاص، والرياء والنفاق، والحيلة والخداع، والاستقامة والالتواء، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار. ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه، وأجرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله، وحبسه في قالبه، فكان رونقه أبين، ورفقه أحسن، ولكن العذر قد تقدم. ولو أردنا أيضًا أن نجمع ما قاله كل ناظم في شعره، وكل ناثر من لفظه، لكان ذلك عسرًا بل متعذرًا، فإن أنفاس الناس في هذا الباب طويلة، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة؛ لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب، أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف، أو قريب أو بعيد أو ولي أو خليط، كما لا يخلو أيضًا من عدو أو كاشح أو مداجٍ أو مكاشف، أو حاسد أو شامت، أو منافق أو مؤذٍ، أو منابذ أو معاند، أو مزل أو مضل أو مغل. وقد قال الأوائل: الإنسان مدني بالطبع، وبيان هذا أنه لا بد من الإعانة والاستعانة؛ لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه،

---

(١) في المثل: أجر الأمور على أذلاها؛ أي على وجوهها التي تصلح بها وتسهل وتتيسر، وواحد الأذلال: ذل بالكسر.

(٢) مذق الود: لم يخلصه.

وهذا ظاهر، وإذا كان مدنيًّا بالطبع كما قيل، فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سببًا لنظام الحال، أو يكون سببًا لانتشار الأمر، ولا محالة أن هذه وأشباهها مفضية بالناس إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم، وكتبنا جورهم وإنصافهم، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه، وعيون ما ذكروه ونشروه، ونروي في هذا الموضع بقية أبيات، وإن عنَّ شيءٌ حكيناه، ونغلق الرسالة فإنها إذا طالت أُبغضت، وإذا أُبغضت هجرت». اهـ.

وهذا النموذج الذي أوردناه من الصداقة والصديق كافٍ في الحكم على أسلوبه والروح الذي ينزع إليه في تأليفه. وملاحظة التوحيدي على ائتلاف المتضادين في العلم، والتمثيل بصداقة أستاذه أبي سليمان المنطقي وصديقه ابن سيار القاضي، ووصف أبي سليمان وصفًا دقيقًا للصلات التي عقدت بين قلبيهما، ثم إبداعه في وصف طبقات الأصدقاء، كل ذلك من جميل الوصف. ومن أبدع الصفحات وصف غُربته في أُمته، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلق والعادة. ولا بدع فهو من جيد الوصف في نفسية أهل عصره، ومنزلة العالم بين جمهور الغاغة[1]. ومن أجمل الأعذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علمًا منه أن مكانة الكتاب بمادته لا بسعته، ولكن إذا قضت الحال بالتطويل، اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه.

وفي كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله: رأيت ابن سعدان ينشد يومًا وقد أنكر شيئًا من بعض الندماء:

---

(١) الغوغاء من الناس: الكثير المختلط منهم كالغاغة.

عـــــدوٌّ راح في ثـــــوب الـــــصديق شريــك في الــصَّبوح وفي الغَبــوق[1]
لــــه وجهــــان ظـــاهره ابـــن عـــم وباطنـــه ابـــن زانيـــة عتيـــق
يـــسرك ظـــاهرًا ويـــسوء سرًّا كـــذاك تكـــون أبنـــاءُ الطريـــق

وأنا أُسمي لك ندماءه، وأروي كلاما له وصفهم به؛ منهم أبو علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، وابن الحجاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس، وابن بكر، ومسكويه، وأبو القاسم الأهوازي، وأبو سعد بهرام بن أزدشير. وكان أوزنهم عنده، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه. هؤلاء أهل المجلس سوى الطارئين من أهل الدولة لا فائدة في ذكرهم. قال زيد بن رفاعة: رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق، ويعرض على أهل الآفاق، ليستفيده الصغير والكبير. قال: أصحابي طرائق قدد[2]، كما قال عبد الحميد الكاتب: الناس أخياف مختلفون، وأصناف متباينون؛ فمنهم عِلق[3] مضنة لا يباع، ومنهم غُل[4] مظنة لا يبتاع. وكما قال الآخر:

النـــاس أخيـــاف وشـــتى في الـــشيم وكلهـــم يجمعهـــم بيـــت الأدم

فأما ابن زرعة فكبره بالحكمة، وخيلاؤه بالثروة، قد قدح في حاق[5] عقله، وهو لا يحس بذلك القدح، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا التنفج والتعظيم، والتهويل بأرسطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب. يا نائم يا غافل يا ساهي،

(١) الصبوح: ما يشرب في الصباح، والغبوق: ما يشرب بالعشي.
(٢) فرق مختلفة أهواؤها.
(٣) النفيس من كل شيء (ج) أعلاق وعلوق.
(٤) سير من جلد أو حديد يجعل في عنق الأسير، ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل.
(٥) وسط عقله.

وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء؟! أسيرتك سيرتهم؟! أحالك حالهم؟! إنما تدعي عقائدهم باللسان، وتنتحل أسماءهم باللفظ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله، لكان محمولًا مقبولًا، ولكنه يأبى إلا ما ألفه، وأفاد المران عليه.

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة قد طرحه في عمق لجّ لا مطمع في انتقاذه منه، ولا طريق إلى صرفه عنه، هذا مع حركات غير متناسبة، وشمائل غير دمثة، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة، ودالة أصحاب الحجة.

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاضي أبي عمر في جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته، مع حياء كأنه مستعار من الغانية الشريفة، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله، فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاء، في صورة عقل حسناء، ولا تخلص هذه من هذه، ولا جرم اجتماعنا به، قاصر عن مرادنا منه، ودنوه منا نابٍ عن مراده له.

أما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطبية، والمساعدة المطربة، والمفاكهة اللذيذة، والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادي إذا (تخرسن) كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا (تبغدد). وإن شئت فضع الاعتبار على من أردت فإنك تجد هذا القول حقًّا، وهذه الدعوى مسموعة.

وأما مِسكويه فإنه يسترد بدَمامة خَلقه ما يتكلفه من تهذيب خُلقه، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءَه

في فن هو فيه طويل الذيل، مديد السيل، لا يأذن له في تعاطي فن آخر هو فيه قصير الباع، بليد الطباع، وصاحب هذا الرأي ممكور به، مصاب بجيد رأيه وقد أفسده: قال المهلبي، قال ابن العميد، وفعل ابن العميد، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين. والتشيع بذكر الرجال، واضع من قدر الرجال.

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس، ولا بد للدار وإن كانت قوراء[1] من مخرج، وهو بجهله، مع خفة روحه وقبح وجهه، أدخل في العين، وألصق بالقلب من غيره، مع علمه وثقل روحه، وحسن ظاهره.

وأما الأهوازي أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة، ولا حموضة ولا ملوحة، وإنما هو كالبصل في القِدر، وكالإصبع الزائد في اليد، على أنا نرعى فيه حقًّا قديمًا، ونرحمه الآن رحمة حديثة.

وأما سيدي أبو سعد فوالله إني لأجد به وجدًا أتهم فيه نفسي، وما وجدت ألم سهر معه قط، وإني أرى حديثه آنق من المنى إذا أدركت، ومن الدنيا إذا مُلكت. وإن تمازجنا بالعقل والروح، والرأي والتدبير، والنظر والإرادة، والاختيار والعادة، ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم، وتراضعا من ثدي وبوغيا في مهد، وما أخوفني أن يؤتى من جهتي، أو أُوتى من جهته، وإن عاقبته موصولة بعاقبتي؛ لأني مأمنه وهو مأمني، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه، والله المستعان.

---

(١) القوراء: الواسعة.

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته، ولولا زيادته التي تصنع بها من نفسه، وبعض من خطراته، لكان هَدّك[١] من رجل، ولكن من لك بالمهذب، ألم يقل الأول: أي الرجال المهذب.

قال زيد بن رفاعة: قلت: أيها الوزيرإن طلوعك في خبايا ضمائرهم، وعلمك بخفايا سرائرهم، يطالبانك بالإفراج عنهم، وقلة الاكتراث بهم، قال: لا نفعل، والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير، وإنهم لأعيان أهل الفضل، وسادة ذوي العقل، وإذا خلا العراق منهم فرقن[٢] على الحكمة المروية، والأدب المتهادَى، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء، أوَلا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم؟ قال: قلت: هذا ابن عباد بالري وهو من يعرف ويسمع. قال: ويحك! وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون، وهو فيما بينهم يصيح ويقول قال: شيخانا أبو علي وأبو هاشم، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته، فما أحب أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليه، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم والأدب والحنكة والإنصاف لذكر شأنه وسيرته، ووصف حاله وطريقته، لحكى كل غريبة، وأتى بكل أعجوبة: الرجل مجدود، وفي زمرة أهل الفضل معدود.

قال أبو حيان: رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكانًا منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق. ونحن عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء في عصر التوحيدي وما يغمزهم به الغامزون، ولو كُتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان في كتبه لجاء الكلام تامًا

(١) هدك: حسبك.

(٢) الترقين: تسويد مواضع في الحسبانات لئلا يتوهم أنها بيضت كي لا يقع فيها حساب.

من كل وجه في الحكم على أهل المائة الرابعة في بغداد، ولتبدل الحكم عليهم، وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم، كأنها حكم مُسَمَّط[1] لا ينقض.

في مقدمة كتابه ثمرات العلوم: «أطال الله بقاءكم، وأدام الله كرامتكم، وحرس نعمه عليكم، وحفظ مواهبه لديكم، ولا أخلاكم من عوائده الجسمية، وفوائده الكريمة، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم، وقد كان يقال: من لم يغضب لنفسه ناصرًا، لم يغضب لبني جنسه منتصرًا، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفًا، لم يرْجُ عند النوائب مسعفًا، ومن لم يأنف من القذع في عرضه آبيًا، لم يبت على الخسف إلا راضيًا، والغضب وإن كان مذمومًا عند بعض الخلال، فإنه محمود في بعض الأحوال، وكما أن استمرار الغضب في جميع الأحوال نوع من فساد الأخلاق، كذلك أيضا الرضا في جميع الأمور ضرب من ضروب النفاق، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب.

وقد كنت أحب لصديقي وجليسي، من يأنس بمكاني، أن لا يجعل اللجاج مطيته، والمَحْلَ[2] والمكر طويته، فإن ذلك أحسن له عند الله، وأزين له عند الناس، ومن بعد ذلك فإني لم أرد بلادكم من العراق مباهيًا لكم، ولا حضرت مجالسكم طاعنًا فيكم، ولا تأخرت عنكم متطاولًا عليكم، ولا تتبعت مساويكم شامتًا بكم، بل وردت مستفيدًا ومفيدًا، ومباحثًا ومستزيدًا، فما هذا الذي بلغني عن بعضكم، على حسن توفري على صغيركم وكبيركم، أما إنه لو أنصف لعلم أني إلى تسمحه أحوج مني إلى تصفحه، وهو بمجاملته أسعد مني بمجادلته، وأنا لإحسانه أشكر

(١) حكمك مسمطًا: أي متمًا؛ أي لك حكمك مسمطًا.
(٢) المحل: المكر والكيد.

مني لامتحانه، وهذا باب باطنه ظاهر، وشاهده حاضر، وخفيه جليّ، ولكن ما أصنع والشاعر يقول: إنما للعبد ما رزقا.

ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر، والترادف والتناصر، والذي هاجني لهذه الشكوى، وأحوجني إلى هذه الدعوى قول قائل منكم: ليس للمنطق مدخل في الفقه، ولا الفلسفة اتصال بالدين، ولا للحكمة تأثير في الأحكام، وهذا كلام من لو أنعم النظر، واستقصى الحال، لوقف على ما عليه فيه، وعرف ما له منه. فكان يستبدل بالخلاف وفاقًا، وبالمنازعة خلاقًا[1]، عاب هذا الرجل المنطق وهجَّن طريقة الأوائل، وزرى على الحكمة، وفيَّل[2] رأي الناظر فيها، وقبح اختيار الباحث عنها، وهذا كله إن لم يكن قُلُّه سوء تحصيل، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن، وحرج صدر، ومجازفة في القول، وانحرافًا عن الصواب، وأمنًا من الاعتقاب[3] إلخ، وربما نيل من عرض صاحبها وأنحى باللائمة عليه من أجلها، وهو قلم لا يقصد إلا الخير، ولا أراد إلا الرشاد، وقد يؤتى الإنسان من حيث لا يعلم، ويُرمى من حيث لا يتقي، كما يُؤتى من حيث لا يحتسب، وينجو وقد أشفى، ويدرك وقد غلب الناس».

وعاد في آخر الرسالة يعتذر عن طولها: «قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة، وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة، يسهل انتساحها وقراءتها، فهاجت بشجون الحديث، وروادف من الطيب والخبيث، فاقبل -حاطك الله- هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت في أي وقت

(١) الخلاق: كسحاب: النصيب الوافر من الخير.

(٢) فيل رأيه: قبحه وخطأه.

(٣) الاعتقاب: الحبس والمنع والتناوب.

ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك».

وفي الحق أن رسالته في الصداقة والصديق قد حملت من آراء الناس إلى عصره كل ما رقَّ وراق من المنظوم والمنثور في موضوعه، ولم يقتصر في الرواية على حكماء الإسلاميين؛ بل تعدى إلى إيراد أقوال فلاسفة يونان. وفي الرسالة من رسائل الكتاب في هذا الباب، ما هو مفيد على غابر الأحقاب، وقد ذكر أبا سليمان المنطقي وأبا سعيد السيرافي في غير مرة وروى عنهما ما دل على إعظامه لهما شأنه في مقابساته وفي الإمتاع والمؤانسة. ولا مراءَ في أن رسالة الصداقة والصديق مرآة صادقة تمثلت فيها أفكار أربعة قرون في هذا النوع الصغير من الأدب، ولغة حوث مثل هذه الأفكار وهذه المعاني هي ولا شك أغنى اللغات بأدبها ووفرة مادتها وأداتها.

وقد كتبت رسالة ثمرات العلوم على ما رأيناها بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم، وتأولوا كلامه فجبههم بما كتب وأجاد. ومن كتبه ما دعته إلى وضعه داوع حافزة، وأمور جاش بها صدره، فهي معمولة بالمناسبات لا متعملة، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التي نحسها ونلمسها.

من جملة كُتب أبي حيان كتاب المقابسات، واسمه صيغة تفاعل من قبسته أو أقبسته علمًا وخبرًا أي أن كلًّا أقبس صاحبه علمًا، وصاحبه أقبسه من علمه. ذكر فيه أبو حيان، وأكثره من محفوظه، بعض ما وقع إليه من مفاوضات علماء مشهورين، كانوا في بغداد يختلفون إلى مجلس صديقه وأستاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، وعنه أكثر مروياته، فيذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة أو ما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة، وهذبت نفوسهم الآداب العالية،

يتناجون بالأفكار الصحيحة والشاذة، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم، وكان فيهم المجوسي والصابي واليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي أمثال: أبي زكريا يحيى بن عدي، وأبي الفتح البوشجاني، وأبي محمد المقدسي، وعيسى بن ثقيف الرومي، وابن مقداد، وأبي القاسم الأنطاكي، وكان يعرف بالمجتبي، وأبي محمد الأندلسي النحوي، وأبي إسحاق الصابي، والخوارزمي الكاتب، ووهب بن يعيش الرَّقي، وابن سوار، وماني المجوسي، وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري، وعبيد الكاتب، والبديهي، وأبي إسحاق النصيبي، وأبي علي عيسى بن زرعة المنطقي، ومظهر الكاتب، وأبي الخطاب الكاتب وغيرهم (من كل من هو واحد في شأنه وفرد في صناعته)، وكان مذهبهم في الفلسفة على الأرجح مذهب أرسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الإسلام، أمثال: ثابت بن قرة، وحنين بن إسحاق، ويعقوب بن إسحاق، وأحمد بن سهل البلخي، ومسكويه، وانقُمى، والسرخسي، والنيسابوري. يطلقون في جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم، ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين إلى هدف واحد وهو معرفة حقائق الأشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات. وإذا أحببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح أهل هذا العصر فقل هو محضر المجمع العلمي البغدادي في المائة الرابعة، وكان لا يحضرها إلا من يُدعى إليها، ويوافق من أكثر الوجوه على ما يلقى فيها.

وهذه المجامع مثال ناطق بأفصح بيان بأن النصرانية لم تكن مضطهدة في العصر العباسي كما زعم بعضهم، بل إن الإسلام كان دين الدولة، وكلمة المسلمين هي العليا بحكم الطبيعة، وقد ساووا عامة أهل المذاهب بأنفسهم، مساواة لم تصل إليها أكثر دول الحضارة الحديثة. وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بأن نقول: إن علماء العرب ما برحوا منذ الأعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون في أندية لهم خاصة، تجمعهم جامعة الأعمال العقلية، فيتقاربون وإن اختلفوا في مظاهرهم، وقد

لا يخليهم الزمن من موسع عليه من بينهم، يفتح صدر مجلسه لهم، يستطلع طلع أفكارهم ويأنس بهم ويأنسون به، ويعطف عليهم ويعطفون عليه. وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من أهل الدولة من يحميها، أو تكون للسمر واللعب واللهو وتعاطي اللذائذ، ومعظم ما تناهى إلينا من أخبارها مفيد.

سئل أبو سليمان المنطقي: لِمَ لم يصفُ التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ، كما صفا ذلك في الفلسفة؟ فقال: إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم، وعرف حقيقة أقوال متقدميهم، بل كان في القوم من رأى رأي العامة، وحط إلى ما حطت إليه، ولم يبن منهم كثير شيءٍ مع قدم الزمان، ولقاء المحققين الفاضلين، وهذا إذا حل لا يكون قادحًا فيما نصصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة وفرسان الصناعة. على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية، ومن العبرانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالًا لا يخفى على أحد، ولو كانت معاني يونان تهجس في أنفس العرب، مع بيانها الرائع، وتصرفها الواسع، وافتنانها المعجز، وسعتها المشهورة، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب، وكاملة بلا نقص، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم، كان ذلك أيضًا ناقعًا للغليل، وناهجًا للسبيل، ومبلغًا إلى الحد المطلوب، ولكن لا بد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها، وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها، وذلك للعجز الموروث عن الهيولي، والضعف الثابت في الطينة الأولى، وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذًا للخلق، ومعاذًا للعالم.

قال أبو حيان لأبي سليمان: ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة؟ فقال: ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم، وطريقتهم مؤسسة على

مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء، إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس، أو يحكم به العيان، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشأ، وسائر الأغراض التي يطول إحصاؤها، ويشق الإتيان عليها، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، وإتمام القول الذي لا محصول فيه، ولا مرجوع له، مع بوادر لا تليق بالعلم، ومع سوء أدب كثير، نعم ومع قلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بتحمله. والفلسفة -أدام الله توفيقك- محدودة بحدود ستة، كلها تدلك على أنها بحث عن جميعها في العالم: من ظاهر للعين، وباطن للعقل، ومركب بينهما، ومائل إلى حد طرفيهما، على ما هو عليه، واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله، ومسموعه ومرئيه، وموجوده ومعدومه، من غير هوى يمال به على العقل، ولا إلف تغتفر معه جناية التقليد، مع إحكام العقل الاختياري، وترتيب العقل الطبيعي، وتحصيل ما ند وانقلب، من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حسًّا وعيانًا، وكانت محققة عقلًا وبيانًا، ومع إخلاق الهيئة واختيارات علوية، وسياسات عقلية، ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها، ولا تبلغ أقصى ما لها من حقها في شرفها.

ثم قال: وكان شيخنا يحيى بن عدي يقول: إني لأعجب كثيرًا من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام، والكلام لنا بنا كثر وانتشر، وصح وظهر، كأن سائر الناس لا يتكلمون، أو ليسوا أهل كلام، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت. أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوي والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعي والإلهي والحديثي والصوفي. قال: وكان يلهج بهذا، وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أصولًا، وجعلوا ما يدعونه

محمولًا عليها ومسئولًا عن عرفها، وإن كانت المغالطات تجري عليهم ومن جهتهم بقصدهم مرة، وبغير قصدهم أُخرى.

قال أبو حيان: رويت لأبي سليمان كلامًا لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال: لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئًا لقلت: الحواس مهالك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك، فمن خلص نفسه من الممالك قوي على المسالك، ومن قوي على المسالك أشرف على الممالك، شرفًا يوصله إلى الممالك. قال أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم، فلو زدتنا منه، فقال: الحواس مضلة، والأوهام مزلة، والعقل مذلة، فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث، ومن أدرك في الثالث فقد أفلح، ومن ضل في الأول وزل في الثاني حاف[1]، ومن حاف في الثالث فهو من الهمج. واستزاده مظهر الكاتب البغدادي فاستعفى، قال: هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكسة... إلى أن قال: فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة، وهذه الأسرار في هذه الطريقة. اهـ.

على هذا النحو كانوا يمضون في أحاديثهم، صرح أحدهم بما يراه في التصوف فلم يحط منه ولا من المنصرفين إليه، وتناول آخر المتكلمين في غير ما تدليس وتأدب معهم، والمتكلم غير مسلم، ولم يحمل كلامه على غير محمله. وقال آخر في الفلسفة، وامتدح من معاني اليونان، وقال: لو كتبت بالبيان العربي لكانت غيرها، وهذه هي الحرية، ولولاها ما عاش علم صالح، ولا انبعث عقل راجح، ولا كانت حضارة هذه الأمة مما ترتفع به الرءوس، ويقال فيها على الدهر: لا عطر بعد عروس.

قال في مقدمة كتابه الإرشادات الإلهية مخاطبًا النفس: اللهم إنا نسألك ما نسأل، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وأفعالنا معك، وسوالف إحساننا قِبَلك،

(١) حاف عليه في حكمه: مال وجار.

ولكن عن ثقة بكرمك الفائض، وطمعًا في رحمتك الواسعة، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك، ومعرفة لا يخالطها إنكار، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة؛ نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك، يا حافظ الأسرار، ويا مسبل الأستار، ويا واهب الأعامر، ويا منشئ الأخبار، ويا مولج الليل في النهار، ويا مصافي الأخيار، ويا مداري الأشرار، ويا منقذ الأبرار من النار والعار، عد علينا بصفحك عن زلاتنا، وانعشنا عند تتابع صرعاتنا، وحطة حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا، وإذا خفنا منك فأبرح[1] خوفنا منك برجائنا فيك، وإذا غلب علينا يأسنا منك فتلقه بالأمل فيك...

ومن فصوله فيه: أيها المحاور، والصديق المجاور، كيف أتكلم، والفؤاد هائم في كل وادٍ، والخاطر خالٍ من كل جاد وهاد، أم كيف أشكو والسر ظاهر باد، أم بأي شيء أتعلل وكل ما أجده مردد ومعاد، أم على من أعتمد، وكل أحد أراه فهو ضد ومعاد؛ أنفاسي متحرقة بالحسرات ودموعي مترقرقة بين النغمات والزفرات، وكبدي مشتغلة على المناظر والهيئات، ويقظتي جارية على الرسوم والعادات، وأحلامي عارية من كل ما له حاصل وثبات، ونفسي رهينة بالسيئات، مفتونة بالحسنات، بالسوانح والخطرات، مغبونة عن الحسنات والصالحات، الجهات دوني منسدة، والوجوه أمامي مُسْوَدَّة؛ إن قلت قيل: هذا زور وبهتان، وإن أشرت قيل: هذا غرور وعدوان، وإن سكت قيل: هذا سهو ونسيان، فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به، رحمني مما لا غنًى لي عنه، أوَليت من طردني عن بابه، أهَّلني لعتابه؟ أوَليت من جرعني مرّ فراقه، أخطر على بالي حلاوة لقائه؟ أوَليت من غمسني في

(١) أبرحه: أزاله.

بحر البلوى، طرحني إلى ساحل المنى؟ أوَليت من حطني عن درجة المخدومين رقاني إلى مقامات الخدم؟...

وقال من رسالة أيضًا: حرام على قلب استنار بنور الله، أن يفكر في غير عظمة الله، حرام على لسان تعود ذكر الله، أن يذكر غير الله، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله، أن تدنس بشيءٍ من مخالفة الله، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله، أن تُحدِّق إلى غير الله، حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله، أن تطمئن إلى غير الله، حرام على من لم ير الخير إلا من الله، أن يجد طمعًا في غير الله، حرام على من شرف بخدمة الله، أن يتضع بخدمة غير الله، حرام على من ألف فِناء الله أن يعرج إلى غير الله، حرام على من تلذذ بمناجاة الله، أن يناجي غير الله، حرام على من رتع في فقه الله، أن يعبد غير الله...

وعجيب أن يُرمى من يقول هذا القول في العزة الإلهية بالزندقة، ويتهم بالمروق. كأن كل هذا الإحسان لا يكفر سيئة لإنسان، وكل هذا التقديس والتوحيد لا ينجي صاحبه من الوعد والوعيد! وساق ابن أبي الحديد فصولًا من كلام أبي حيان وعنن لها بقوله: «ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة»: «اللهم إني أبرأُ من الثقة إلا بك، ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك، ومن التفويض إلى إليك، ومن التوكل إلا عليك، ومن الطلب إلا منك، ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك، ومن الصبر إلا على بلائك، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي، والشكر على نعمك شعاري ودثاري، والنظر إلى ملكوتك دأبي وديدني، والانقياد لك شأني وشغلي، والخوف منك أمني وإيماني، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري؛ اللهم تتابع بزك، واتصل خيرك، وعظم رفدك، وتناهى إحسانك، وصدق وعدك، وبرَّ قسمك، وعمت فواضلك، وتمت نوافلك، ولم تبق

حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة، إنك أهل ذلك، والقادر عليه، والمليء به».

ومنها: «اللهم إني أسألك جدًّا مقرونًا بالتوفيق، وعلمًا بريئًا من الجهل، وعملًا عريًّا من الرياء، وقولًا موشحًا بالصواب، وحالًا دائرة مع الحق، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلى رَوْح بال، وسكون نفس موصلًا بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة، حتى تكون غايتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل، من حياة طيبة أنت الواعد بها، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه، اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك، ولا تصفر[1] كفًّا هي ممدودة إليك، ولا تعذب عينًا فتحتها بنعمتك، ولا تذل نفسًا هي عزيزة بمعرفتك، ولا تسلب عقلًا هو مستضيءٌ بنور هدايتك، ولا تخرس لسانًا عودته الثناء عليك، فكما كنت أولًا بالتفضل، فكن آخرًا بالإحسان، الناصية بيدك، والوجه عانٍ لك، والخير متوقع منك، والمصير على كل حال إليك، ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة، وحَلِّني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن، وافطم نفسي عن طلب العاجلة الزائلة، وأجرني على العادة الفاضلة، ولا تجعلني ممن سها عن باطن ما لك عليه بظاهر ما لك عنده، فالشقي من لم تأخذ بيده، ولم تؤمنه من غده، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك، ونقلته حميدًا إلى منازل رحمتك، غير مناقش في الحساب، ولا سائق له إلى العذاب، فإنك على ذلك قدير».

وهذه النبذة من مقدمة كتاب البصائر والذخائر، قال: إنه أودع كتابه جميع ما في ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به، واشتملت الروية عليه، منذ عام

(١) اصفر: افتقر، والبيت أخلاه كصفره.

خمسين وثلثمائة إلى سنة خمس وستين وثلثمائة مع توخي قصار ذاك دون طواله، وسمينه دون غثه، ونادره دون فاشيه، وبديعه دون معتاده، ورفيعه دون سفسافه. قال: إن القارئ سيشف منه على رياض الأدب وقرائح العقول من لفظ مصون، وكلام شريف، ونثر مقبول، ونظم لطيف، ومثل سائر، وبلاغة مختارة، وخطب محبرة... إلخ، وجمعه من كتب أبي عثمان بن بحر الجاحظ وابن الأعرابي والمبرد والصولي وابن عبدوس وقدامة وغيرهم.

من أهم ما حواه كتاب البصائر، مناظرة أبي بكر الصديق مع علي ومبايعته إياه، وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة، ومنهم من غمز التوحيدي واتهمه بأنه هو واضعها ، مثل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محيي الدين بن عربي في المسامرات. ومحال في العقل أن يضع التوحيدي هذه الرسالة وهي بعيدة عن أسلوب كلامه، وإن أحب ابن أبي الحديد أن يشبهها به.

أما التوحيدي فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال: سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروروزي ببغداد بدار أبي حبشان في شارع المازيان، فتصرف الحديث بنا كل متصرف، وكان أبو حامد معنًا مفنًا مخلطًا مزيلًا[1] غزير الرواية، لطيف الدراية، له في كل جو متنفس، وفي كل نار مقتبس، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة، فركب كل منا مركبًا، وقال قولًا وعرض بشيء ونزع إلى فن، فقال أبو حامد: هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر الصديق إلى عليّ وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة؟ فقالت الجماعة التي بين يديه: لا والله. فقال: هي من درر الحقائق[2] المصونة، ومخبآت الصناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ

(١) المعن: الذي يتصرف في المعاني، والمفن: الذي يتصرف في كل فن، والمزيل بكسر الميم: الرجل الكيس اللطيف، يقال: هو مخلط مزيل كما يقال: هو راتق فاتق، والمراد به أنه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم.

(٢) الحقاق: جمع حقة، وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر.

حفظتها ما رويتها إلا للمهلبي أبي محمد في وزارته، وكتبها عني في خلوة بيده قال: لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على علم وحكم، وفصاحة وفقاهة، ودهاء ودين، وبعد غور، وشدة غوص. فقال له أبو بكر العباداني: أيها القاضي، فلو أتممت المنة علينا بروايتها، وسمعناها وروياناها عنك، فنحن أوعى لها من المهلبي، وأوجب ذمامًا عليك... إلخ.

وبعد أن أورد التوحيدي هذه الرسالة العجيبة قال: روى لنا هذا كله أبو حامد، ثم أخرج لنا أصله فقابلنا به، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له، فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف في أحرف في حواشي الكتاب، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر، وفي غرائبها أنقد، وإنما قدمت رواية أبي حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم، ولأعاجيبها أحفظ، وفيما أشكل منها أفقه.

قلنا: وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست من صنع أبي حيان، وأنها كانت معروفة قبله، وإذا أبى بعضهم إلا أن يقول: إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدي، وهي على كل حال لا تخلو من أصل ربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة، فأراداو نكاية الشيعة في كثير مما صنعوه، فزادوا أمورًا في هذه الرسالة وقعت بين الصحابة أو تمثلوا وقوعها. والرسالة من جملة ما يجب على الأديب أن يستظهره ويعيه؛ لأنها حوت من أساليب البلاغة كل جميل، وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد.

وهاك جملة قليلة من الرسالة، قال أبو بكر لأبي عبيدة: امض إلى عليٍّ واخفض له جناحك، واغضض عنده صوتك، واعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدنا بالأمس مكانه، وقل له: البحر مَغْرقة، والبر مفرقة، والجو أكلف، والليل أغدف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رءوف، والباطل نسوف عصوف، والعجب مقدحة الشر، والضِّغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، والقحة ثقوب العداوة، وهذا الشيطان متكئٌ على شماله، متحيل بيمينه، نافج[1] حضنيه لأهله ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادًا لله ولرسوله ولدينه، يوسوس بالفجور، ويدلي بالغرور، ويمني أهل الشرور، ويوحي إلى أوليائه زخرف القول بالباطل، دأبًا له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادة له منذ أهانه الله عز وجل في سالف الدهر...

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك، ما هذا الذي تسوّل لك نفسك، ويدوي قلبك، ويلتوي عليه رأيك، ويتخاوص دونه طرفك، ويستشري به ضغنك، ويتراد معه نفسك، وتكثر معه صعداؤك، ولا يفيض به لسانك، أعجمة بعد إفصاح، أتلبيس بعد إيضاح، أدين غير دين الله، أخُلق غير خلق القرآن، أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم، أمثلي يمشي له الضراء ويدب له الخمر، أم مثلك يغص عليه القضاء، أو يكسف في عينه القمر، ما هذه القعقعة بالشنان[2]، وما هذه الوعوعة باللسان...

---

(١) الأرض الصلعاء: التي لا نبات فيها، والجلواء: المصحية، وأغدف الليل: أظلم، والأكلف: الأغبر، والمفرقة من الفرق وهو الفزع، والمغرقة: ما يغرق فيه، والعصوف: الريح الشديدة، والنسوف: الطويل الشاق الذي ينسف صاحبه، ومن المجاز بيني وبينه عقبة نسوف طويلة شاقة، والشجار ككتاب: خشبة توضع خلف الباب، والثقوب: ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها، والنافج: الرافع.

(٢) أفاء: أرجع، وتراد مثل تردد. والتخاوص: غؤور البصر مع الإحداق كأنه يقوم سهمًا، ويدوي به قلبك: أي يفسد من داء، والصعداء: النفس العالي في الغضب والهم، والضراء: الشجر الملتف في الوادي.

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك، وجعل مرادك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقب زمانك، وقلص أردانك، ودع التجسس والتعسس لمن لا يظلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، فالأمر غض، والنفوس فيها مض، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجًا، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجًا، وماؤها العذب فلا تحلُ أُجاجًا، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي: يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه، لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه، ولمن يتضاءل عنه، لا لمن يشمخ إليه، ولمن يقال هو لك، لا لمن يقول هو لي، والله لقد شاورني رسول الله في الصهر فذكر فتيانًا من قريش، فقلت له: أين أنت من علي، فقال: إني لأكره لفاطمة مَيْعَة شبابه، وحدة سنه. فقلت: متى كنفته يدك ورعته عينك، حفت بهما البركة، وأسبغت عليهما النعمة، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء، فقلت ما قلت. وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنت لك إذ ذاك خيرًا منك الآن لي، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك، وإن يختلج[1] في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضي، والصواب مسموع، والحق مطاع...

والخمر: الشجر المتلف أيضًا، يقال للرجل إذا ختل بصاحبه: هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر، والقعقعة: حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها، والشنان: جمع الشن بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع، وفي المثل: ما يقعقع له بالشنان، يضرب لمن لا يخدع ولا يروع.

(١) يقال: رهصني في الأمر: استعجلني فيه، ومن المجاز: أرهص الله فلانا جعله الله معدنًا للخير. يقال: فلان يعتس الآثار؛ أي يقتصها، ويعتس الفجور يتبعه، وقلص أرادلك: شمر أكمامك، والمص: الألم، والعض: الجديد، وظلع: عرج، وحلم الأديم والجلد: إذا فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب، وفي المثل: كدابغة وقد حلم الأديم، يضرب لمن يسعى في إصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لا يرجى إصلاحه، جاحش: حامى ودافع، يقال جاحش عن خيط رقبته؛ أي نفسه، وهو مثل قال الميداني أصله من الجحش الذي هو سجخ الجلد، يقال: أصابه شيء فجحش وجهه؛ أي قشره، فجحش شقه الأيمن. ميعة الشباب: أوله، والحوجاء: الحاجة، ومنه ما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء؛ أي حاجة، واختلج: تلجلج.

فذلكته في حياته:

لعلنا بلغنا حاجة النفس في نقل صورة التوحيدي نقلًا إن لم يكن طابق الأصل فهو قريب منه، اقتبسنا درَرًا من كتبه ورسائله، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج، وقلبه من النزوات، وما تقلب فيه من البأساء والضراء، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف إلى العظماء، والأخذ عن العلماء. وتمثلنا في كلامه سلامة الفكر والإبداع فيه، وسلاسة الإنشاء وتجويده. أرأيتم هذه الإجادة التي تقف عندها العقول حائرة، يكتب صاحبها في غير الأدب فلا تخونه لفظة، وتتناسق الجمل في تركيبها تناسق العقد النفيس، ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أي مواءمة، ويؤثر في قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوله على مسمعه، أرأيتم كيف آضت اللغة في يد التوحيدي كالعجين يرسمه الرسم الذي يشاء، أو كالقرطاس في يد المصور الحاذق، وعنده جِماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء؟

اللغة في نظر التوحيدي واسطة تعبير وتصوير، لا أداة لطافة وظرافة؛ كانت على أسَلة قلمه، غزيرة المائية، نضيرة الديباجة، وكان بيانه الصافي البراق يسيل مطواعًا لبنانه، يتصرف به تصرفًا غريبًا، ويصرفه في ضروب الموضوعات العالية؛ وكأن اللغة في عصره، وقد أصبحت لغة حضارة باهرة، أخذت الزبدة النافعة من الأمم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين، فمرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى، وصفا رصفها ونسجها، فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشي، ودرجت نقية لا شوب فيها ولا تقيد، كأنها خلقت منذ عرفت لغة فلسفة وطبيعة وإلهيات، كما كانت لغة شعر وخطب، منذ أقدم عصور الجاهلية.

عمد التوحيدي إلى استخدام طوائف من الألفاظ تبهرك في رصفها، ويتعذر عليك أن تخلي المكان من لفظة لتضع غيرها محلها، وقد قال العتابي: «الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منه مؤخرًا، أو أخرت منها مقدمًا، أفسدت الصورة وغيَّرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحِلْية». «والكلام إذا خرج من غير تكلف وكد، وشدة تفكر وتعمل، كان سلسًا سهلًا، وكان له ماء ورواء ورقراق، وعليه فِرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه».

ذاكر التوحيدي في العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء، وكانوا في العلم جميعًا، وفي مذاهبهم شتى، فلم يجمد على نقل كلام أهل فن واحد، ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه في معتقده، فكان شأنه شأن عالم في عصرنا فتح بحثًا في مجلة أو كتاب يؤلفه، وأنشأ يجمع في كُناشه وجزازاته أفكار المتضادين ومراميهم في العلم والأدب، وهذا ما كان على حصة موفورة في كتب التوحيدي على ما رأينا، لخّص لأهل قرنه آراء المتقدمين، ورسم لمن بعده مصوّرًا صحيحًا من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم في الميلاد، فأدركنا بما أسمعناه بعض حقيقة عصره في أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة.

ويجمد قصد التوحيدي في نقل كل مجلس كما وقع، وإن كان بعضهم لم يرُقه التعرض لتدوين ما يخالف معتقدهم، أما هو فما كان له أن ينقل كل كلام يرتضيه كل إنسان؛ لأنه لا يحيط بجميع الأهواء، وتعدد الأهواء كتعدد الأناسي، وهو مخالف في طريقته طريقة كثير من المؤلفين، فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على

صواب فيما يذهب إليه، وإذا رأى بعض المتحذلقين[١] في كلامه بعض العُهدة، فيجاوبون وأي كلام خلا ما يُتعلَّق عليه بشيء.

إن التوحيدي لقي شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم، وجوَّد وصفهم وأجمل طرازهم، وكلما نقل شيئًا لا يوافق نحلةً ومذهبًا؛ قال خصوم فكره: إنه يصطنع نقله، ويُزوِّر على رواته فيزورون[٢] له. كان التوحيدي راوية المجالس العالية والرواية كما قيل العلم المستطيل، ومخالفوه يسوءهم هذا وينوءهم، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها، وتابعوا على العمياء قائليها. خالف التوحيدي في طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء، فبينه وبينهم بعد باعد، وليس من الإنصاف أن نأخذ عليه خروجه عن مألوفهم.

الحـــق أبلـــج لا يُحيـــل ســـبيله والحـــق يعرفـــه ذوو الأحـــلام

لا جرم أن التوحيدي حار في أمره مع من وُسموا بالعلم في زمنه، وهم محافظون متشددون في تقاليدهم ومصطلحاتهم، لا يبالون أن يرموا كل من أبدع طريقة، وكشف عن حقيقة بالتفسيق والتبديع والتفكير، ومن أسهل الأعمال عليه أن يتقربوا من ذوي السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن فاقهم وأربى عليهم. ويا لبؤس عالم لم يتخذ له يدًا عند صاحب صولة في مثل تلك الدول، فإن مجرد اتهام بعض المعادين له بانحلال العقيدة كافٍ في بتر حبل حياته، ولا من يرحمه أو يشفع به.

أراد المأمون -رضي الله عنه وأرضاه- أول المائة الثالثة أن يخرج الأمة من ربقة التقليد الأعمى إلى ساحة العقل السليم، فرأى أن يسيطر على الدين واللغة

---

(١) حذلق: أظهر الحذق، أو ادعى أكثر مما عنده كمتحذلق.

(٢) تزاور عنه: عدل وانحرف كازورّ، وزوّر: زين الكذب، والشيء حسنه وقومه.

والآداب والعلوم، بتسامح وتعقل، ولكن معظم ما بناه تهدم بأُفول نجمه، ويا للأسف، فلم ينشأ بعده للأمة خليفة في وزنه وعياره، يحمي العقل ودعاته، ويفسح الباحثين مجال النقد والنظر.

ومن المصائب أن أقدار الممالك معلقة أبدًا على الرأس الذي يدبر أمرها خليفة كان أو سلطانًا أو أميرًا، متى زال تزول معه أوضاعه وتراتيبه أو أكثرها، وقلَّ أن بنى الخلف على السلف، أو سار المتأخر على قدم المتقدم، ولذلك كانت حضارتنا في كل عصر وقطر كالأرض البقعة نباتها متقطع، أو كالواحات المتفرقة في المهمة القفر، يختلف شكلها باختلاق البقعة التي نشأت فيها، وتلبس ثوبًا فصل على عقل صاحب السلطان الأكبر، وآذنت ببلائه وغنائه. وقلما عهد أن سار الابن بسير أبيه وجده إلا على عهد أوائل العباسيين، وفي بعض دور الأمويين في الشرق، والأمويين في الأندلس، وما عدا ذلك فأفراد من أصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم، فأحالوا القفار جنانًا، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطانًا، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الأمَّة سيرتها الأولى، تثبت أن الأمية أعلق بشغاف قلبها، لا سيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة في ترك العقول جامدة خامدة، حتى لا يرتفع عقل عن عقل، ولا يمتاز فاضل بعموم الفضل.

نعود إلى حياة التوحيدي فنقول: إن الرجل الذي لم يأبه لما اعترضه من العقبات، ومزّق حجب الوهم وحكَّم سلطان العقل، واستعرض ما جادت به قرائح أعاظم الملة في القرن الثلاثة قبله، وكتب العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق تسيغه على كدورة في شرعته أحيانًا -الرجل الذي كان كذلك حاله يُعَدُّ النابغة المجتهد حقًّا وصدقًا، ويعد جديدًا مجددًا في فكره وبيانه، ويعد نابغة قرنه، وفردًا عظيمًا بين أقرانه.

كَتَب التوحيدي فأكثر الكتابة، ومع هذا فانشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب، ولا عُني بالتنميق والتحبير، والصقل والتطرية. وكان هدفه إبلاغ العقول، ما يجول في الخواطر، من أقصر الطرق، وأسهل المسالك تارة، ومن أطولها تارة أُخرى. اختص بوصف آراء المفكرين والنظار، على وجه لم يؤثر عن غيره، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة، فكأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت بموت الجاحظ، وأتمه بما حدث بعد أبي عثمان من فنون القول، وضروب المعارف، ولو كان روح التوحيدي غير معذَّب بالإخفاق والإملاق، كروح الجاحظ الشفاف البراق، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه، واطمأن بما تطمئن به روح من تهنأ العيش، لجاء التوحيدي كالجاحظ إلا قليلًا.

بيد أن اضطراب عصره، كان منه اضطراب فكره، وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته، أدّت إلى اشتغال قلبه برزقه وجرايته، فكان في ذلك الفقر طول العمر. وإذا قيل: إن الجاحظ كان على دهاء لا ينكر محله، اتقى بجربزته لذعات حساده، ومؤلمات مناظريه، وإن التوحيدي لم يعرف سياسة العلم، ولم يستكمل تعاطي الأسباب إلى الرزق، وما أحرز خِصَل السبق إليه، نقول لمن يقول: هذا لا تنسَ أن الجاحظ كان الخلفاء يرعونه ويحبونه، والوزراءُ يخادنونه ويحبونه، والناس يعجبون به ويمجدونه. والتوحيدي، للجهل الطارئ على الخلفاء والأمراء في عهده، يضطرب في حياته اضطراب الأرشية في الطوى البعيد، كلما التفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة، وكلما قال يسرًا، قالت الأيام عسرًا، عاش في شظف من العيش، وعَجَف من المال، وكَلَب من الزمان؛ فكان الموتور المفلوك، الموجع القلب، المعذب الفؤاد. والمرء مهما أُوتي من عقل سليم، وأخلاق فاضلة لا يخرج عن كونه محصول مسكنه وهوائه ومدرسته وأساتيذه وأقرانه، وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعي على

نفسه، وهو زبدة ما أخذه بالفطرة من دم أبويه، واكتنهه من اتصاله بأجداد قدماء قد لا يعرف أخبارهم، على حين أورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم.